

# غزوة بدر الكبرى



جمال حماد



الجمهورية العربية المتحدة  
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

# غزوة بدر

من الناحيتين العسكرية والسياسية

تأليف  
الأستاذ جمال حماد





# الاهداء

مَنْبَعُ الضِّيَاءِ وَالْإِيمَانِ  
وَالنَّصْرِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ  
قَبَسْتُ مِنْهُ قِصَّةَ الْفُرْقَانِ  
إِلَى "جَمَالٍ" قَائِدِ الشَّجْعَانِ  
وَ"نَاصِرِ" الْإِسْلَامِ وَالْأُطْلَانِ  
حَتَّى تَكُونَ فِي مَدَى الزَّمَانِ  
رَمْزَ الْوَفَا وَالْحُبِّ وَالْعِرْفَانِ  
جَمَالِ عَمَادِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

أحمد الله سبحانه على الفضل الكثير والنعمة السابغة ، وأصلى وأسلم على نبيه محمد من جاء بالدين القيم والبطولة الرائعة والحجة الدامغة ، وأسأله سبحانه أن يلهم الصواب في القول والعمل وأن يرزق الأمن والتصر في السلم والجهاد إنه سميع مجيب .

وبعد

فأني منذ اتجهت في أول نضج الشباب إلى دراسة المواقع الحاسمة في الإسلام وأخرجت فيها كتاباً سمّيته « معارك الإسلام الكبرى » - وهو تحليل لهذه المعارك من الناحية الحربية -

أقول : منذ ذلك الحين وأنا كلما عدت إلى وقعة بدر وموقف المسلمين فيها والغنائم التي أسفرت عنها وحاولت أن أجدها شبيهاً في مواقع التاريخ لم أجد بداً من أن أعقد بينها وبين أي معركة أخرى من المواقع الحربية والبطولات البشرية مشابهة ونسباً .

ولطالما عدت إليها وقرأت تفاصيلها والظروف التي اكتنفها وأحاطت بها في شتى الكتب والمراجع التي تتحدث عنها إجمالاً وتفصيلاً من القرآن والحديث

والنفسيز والسيز والقصاص فلم تردني الاستزادة من القراءة والبحث والاطلاع  
إلا وثوقاً في أنها كانت الموقعة الفذة الفريدة التي جاءت بنتائج لم تكن مأمولة منها  
ولم تكن الأسباب التي توفرت فيها مؤدية إليها ، فثبت لدى ثبوتاً قاطعاً  
— إيماناً وعقلاً — أنه لم يكن لها قط شبيه في كل مواقع التاريخ .

وحينما استقر في نفسي هذا الحكم مؤيداً بالأدلة القاطعة والحجج الباهرة  
الدامغة رأيت أن أفرداها بكتاب يلم بأطرافها ما أمكن لبشر — هو في مظنة  
التقصير والخطأ — أن يلم أو يحيط .

وهذا الكتاب فيها هو غاية الجهد لرجل تلقى عليه واجبات شاقة وتحمل  
عليه مسئوليات جسيمة ، فلم يحن له ولم يتيسر أن يتفرغ للأمر كل التفرغ  
أو معظمه ، ولو قدر له ذلك لكان جديراً ببحثه أن يستفيض استفاضة أكثر  
ولكتابيه أن يحتل مكاناً أفضل .

ولكن حسبي أني جهدت له وبذلت فيه عنايتي وجمعت له من الأسباب  
والدواعي ، والحوادث والأحكام ، والنتائج والآثار ، ما يجعله مغنياً بعض  
الغناء ، ولو أنه لم يستوعب كل ما يمكن أن يقال في هذه الغزوة الكبرى التي  
كان نصر الإسلام فيها نصراً مؤزراً فريداً ، بل كانت الأس الأول الذي بنيت  
عليه الانتصارات المتتابعة الحاسمة لأتباع هذا الدين الحنيف ، والتي أصاب  
أصحابها من الجزاء ما لم يصب أحداً من المحاربين في موقعة غيرها من الجزاء  
الحسن والنعيم المقيم .

ثم أفردت كتابي هذا بنظرة للوقعة الكبرى من الناحية العسكرية والسياسية ،  
وهو ما لم تذهب إليه البحوث الأخرى التي تحدثت عن الغزوة ، ثم بذلت اهتمامي  
في الموازنة بين « التكتيك » الحربي في تلك الغزوة وبينه في الحروب الحديثة ،  
ثم فيما كان فيها من السياسة الحربية الفائقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وما صدر فيها من آداب القتال ووجوب المحافظة على النصر وعدم الاغترار بالنفس أو بنتائج الظفر والفوز ، تلك الآداب التي أصبحت دروساً للمسلمين في كل فتوحاتهم ، بل التي صارت قدوة لكل من يريد الفوز والانتصار .

ويتبين اهتمامنا بهذا في أثناء الكتاب كله ولاسيما في الفصول الوسطى منه ، وفي الفصل الذي نتحدث فيه خاصة عن « تقدير الموقف » وفي الفصل الذي يليه وعنوانه « أين الحل » ومنهما يتضح — لكل ذى بصيرة — الرباط الذي لم يكن بد منه لأن تتولى قوى خفية من الملائكة أمر هذه المعركة حتى تدول دولة الشرك وأهله بعد أن حشد كل قوته وعدته وماله ورجاله وقد ملاءه البطرو والكبر والغرور .

وربما كان من الواجب أن نعقد فصلاً أخرى في الكتاب نذكر فيها سير الرجال الذين عاشوا بعد بدر من المسلمين الذين قاتلوا فيها وسير الذين أسلموا من المشركين بعدها ولم يكونوا من الذين كفوا أيديهم عنها ، إلا أن المراجع الكبرى وكتب السير والتاريخ قد تولت ذلك بالتفصيل فأجزأت عنا ونخفف من جهدنا .

وقد رأينا إتماماً للفائدة أن نذيل الكتاب بمصورات للحجاز وأماكن السرايا وموقعة بدر وطريق نجد ، وجعلنا نحدد عليه الأماكن التي ذكرتها المراجع ونقيس أبعادها بقدر ما تسنى لنا حتى تكون المصورات أقرب إلى الدقة وأشمل في النفع .

ولإنه لنى النية — إن شاء الله بعونه — أن نتبع هذا البحث ببحث في المزايا الحربية والسياسية التي ظهرت للنبي صلى الله عليه وسلم في غزواته كلها وأن نقيسها إلى ما ظهر من البطولات العظمى في الحروب البشرية لنبين للناس أنه صلى الله عليه وسلم كان أستاذاً للرجالات ومعلماً للبطولات .

هذا ، وأسأل الله أن يجعل كتابي هذا في أول القرب إليه وأن يرضى عنه القلوب المؤمنة ، ويفيد النفوس المتطلعة .

جمال حماد

وهو حسبي ونعم الوكيل .





السُّدْرُ الْأَوَّلُ





# النُّذُرُ الْأُولَى

حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ليلة أن هاجر مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه خرج وهو يتأسف على ترك موطنه ومكان مولده ونشأته وبلد عشيرته وأهله ، فلما تلقاه غار ثور هو وصاحبه ليتواريا عن عيون الكفار حتى يخلو لهما طريق الهجرة ألقى النبي على مكة قبل أن يدخل الغار نظرة مشفقة حزينة ثم قال :

« أنت أحب بلاد الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك ». ورأى الله سبحانه ما رأى من رسوله وسمع منه ما سمع فأنزل عليه - ليسكن قلبه ويسليه ويحرثه على المضي في طريقه - قوله تعالى :

« وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » (١) .

فكان قول الله هذا آخر نذير لقريش عند إخراج الرسول من بلده . أما قبله فلا استطاع إحصاء النذر إلا لمن تتبع آيات القرآن المكية ورأى آراء الصحابة والمفسرين فيها ليعرف دواعيها وأسباب نزولها والمواعيد التي هي مصبوبة عليها .

---

(١) سورة محمد الآية ١٤ .

غير أن نظرات عابرة على أقوالهم تكشف لمن ينظر فيها على عدد ضخم وفير من هذه النذر ، وتكاد كلها تشير إلى موقعة دنيوية حاسمة متوقعة في القدر مقبلة — لا محالة — عن قريب . ثم عرف فيما بعد — عن يقين — أن هذه الموقعة الحاسمة لم تكن إلا بدرا ، تلك الموقعة التي سميت فرقاناً وبطشة كبرى في القرآن العظيم .

ففي سور الفرقان والشعراء والنمل والذاريات والطور والقمر والمزمل والملك والجن وكثير غير هذه من سور القرآن — طواها ومفصلها وقصارها — ترى نذرا متلاحقة وإن تغير عليها التعبير واختلفت ألفاظ التبيين ، منها ما كان عاماً يشمل المشركين من أهل مكة جميعاً ، ومنها ما كان خاصاً يقصد العتاة والمستكبرين أمثال الوليد بن المغيرة (١) وأبي جهل بن هشام (٢) والنضر ابن الحارث (٣) .

ومع تلاحق هذه النذر وتواليها في الآيات الصادقة المنزلة على المبعوث الصادق فإن كثيراً من أهل مكة لم يتعضوا ولم يرتدعوا بل تماردوا . فسخرُوا واستهزؤا .

وكانت دلائل النبوة قد بدت منذ اللحظة الأولى ، حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليه نبي في فترة وجاهلية . وكان أولى بعشيرة النبي وأهل بلده أن يسبقوا إلى الإيمان وأن يعلوا حياة مكة بالإسلام ، وقد رأوا بأعينهم وشمعوا بآذانهم وعلموا من تجاربهم — قبل غيرهم — ما كان عليه محمد من صفات الأنبياء وما كانت عليه روعة آيات القرآن ، ثم ما رأوه من

(١) تفسير البيضاوي في سورة المزمل .

(٢) أسباب النزول بهامش الجلالين ج ٢ ص ١١٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ص ١ ص ٢٧٩ .

استمسكه صلى الله عليه وسلم بدعوته وعلو أمرها بالذبيح يوم بعد يوم وإقبال العقلاء وذوى الإرادة والمهدين عليها ، ولكن كثيراً منهم ظل يعادى رسول الله ويشدد في عداوته ويتحدى في عناده وإيذائه حتى لم يبق من سبيل لهم ولا للنبي إلا أن يفترقوا في البلد والموطن كما افترقوا في العبادة والرأى والدين .

ولقد نزلت ببعض أعداء رسول الله قبل أن يهاجر من مكة بلالاً وأصحابهم رزايًا فئات من مات وعمى وعمى وضل من ضل وافتقر من افتقر ولقد قال الله للنبي في هؤلاء «إنا كفيناك المستهزئين» (١) وهم الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وعدى بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث أهلكتهم الله جميعاً كلاً منهم بآفة وعذاب (٢) .

ثم كان أقسى ما أصيبوا به من الامتحان والبلاء ما تهاى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب مفارقتهم (٣) وابتعاد رحمة الله عنهم ، ثم لم يرجعوا عن الذهاب وراءه في البادية وهو مهاجر ليردوه إليهم ، وكانوا قد انتقلوا كل يوم في معاداته من شدة وعنف إلى ما هو أشد وأعنف حتى يبتوا له نية القتل غدراً في ليلة الخروج .

وكان هؤلاء الأعداء يهزءون بالنذر ، وكلما هددهم الرسول وأنذرهم بعذاب الله في الآيات الموحى بها إليه سألوهم مستهزئين قائلين : ومتى هذا العذاب ؟ فيجيبهم بقول الله سبحانه «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف (٤) لكم بعض الذى تستعجلون» (٥) .

(١) سورة الحجر آية ٩٥ .

(٢) تفسير الآية نفسها فى الجلالين .

(٣) أنساب الأشراف ج ١ ص ١٥٥ .

(٤) كان النفي بلفظ ( ردف ) يفيد أن العذاب قد ركب معهم على دوابهم رديفاً فهو لاحق بهم لا فرق بين مكانه ومكانهم ولا زمانه وزمانهم ولكنهم عموا وصموا .

(٥) سورة النحل الآيتان ٧٢ ، ٧٣

فلما جد الجدد وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أوجسوا منه ومن هجرته ونقلته خيفة . ومن أجل ذلك طار صوابهم منذ علموا بمبايعة الأنصار له في العقبة . ثم بذلوا غاية جهدهم في رده عن الهجرة . ولكن الله حفظ رسوله من بغيمهم وأحبط كيدهم لينصر دينه ويعلى دعوته على الدين كله ويؤيد رسوله الذي اصطفاه ، ثم لتتحقق النذر التي أوعدهم بها ، وكانت نفوسهم منها في غفلة وعيونهم عنها في غطاء .

وليس من ذنب إلا عليهم ، فقد كان جديراً بهم أن يكونوا جميعاً من السابقين إلى الإيمان — وحتى لو كان هذا سبق تأييداً من عصبية للرسول الذي بعث منهم وهم أهل الحمية والعصبية ، وكانت قريش كلها معدودة من الخمس (١) ولكن الله — قضاء لأمره ونفاذاً لمشيئته — اختار منهم من اختار ليكونوا في السعداء وينتظموا في سلك السابقين الأولين .

ولقد ضرب الله بمكة في حالها هذا مثلاً فقال سبحانه « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٢) .

ولعله كان على من تأخر إيمانه بالنبي من أهل مكة أن يهاجر إليه كما فعل بعض السعداء من الذين تخلفوا عن السبق منهم ، أو أن يسلم ويحكم لإسلامه تقية وسراً كما فعل القليل منهم ، أما من لم يفعل هذا ولا ذاك فقد لحقت به الشقاوة وأطل عليه أجله يناديه ، وهتف به مصرعه ليرتطم فيه .

وانتظم الشقاء فريقين من أهل مكة فأصاب بعضهم شقاء موقوت بدل لهم بسعادة حين قدر لهم أن يسلموا بعد فتح مكة ، وأصاب بعضهم شقاء أبدي

(١) الخمس بالحاء أى المتشددون في الدين والمتعصبون له .

(٢) سورة النحل الآية ١١٢ .

إذ كانوا أكابر أو أصاغر فساقاً ، فوقع بهم وعيد الله ، ورأوا النذر التي كانوا يكذبون بها تنزل بهم فتستأصل شأفتهم وهم لا يستطيعون لها دفعاً ولا رداً .

ولقد أصيب هؤلاء بما هو أشد من الموت هو لا وسوءاً — فزيادة عما كانوا عليه من جهالة عمياء لم يروا فيها أفضل من عبادة الأحجار والأوثان — فقد أهلكهم الله إذ لم يرعوا عن الباطل فزق أكبادهم وفرق أنسابهم : حتى إن الولد أو الوالد أو الأخ أو القريب ما صار يبالي أن يرد يده أو سيفه ورمحه أو نباله عن حميمه أو أن يكبه الله في الدمار والنار لو ظل من الأخسرين .

وربما تفاوتت قسوة القلوب على النبي من أولئك الملأ من أهل مكة حتى بلغت أقصاها في كبرائهم ، ثم بلغت الغاية التي ليس وراءها بعد في أبي جهل ابن هشام ، ففارقهم جميعاً في القسوة والجهل والبذاءة والعيب .

ومع أن سلمة بن هشام أخا أبي جهل كان من السابقين الأولين وكان من مهاجرة الحبشة ، ثم أسلم كثير من أهله ، فإن أبا جهل ظل على تجبره حتى سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرعون هذه الأمة ، وكانت هذه التسمية نذيراً له بأن يلقي — لا محالة — من البلاء ما أصاب فرعون من الغرق والبلاء .

وكان أبو جهل يزدد قسوة على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالي أن يصيب بهذه القسوة قريباً له أو حمياً ولا يبالي بقراءة ولا عصبية ، بل كان يستفحل أذاه بنسبة القرب إليه فهو يشتد على الأقرب له فالأقرب ثم لا يرى بهذا القلب اللفظ الجاحد حرمة لأحد من الرجال أو النساء .

حتى إن أخاه سلمة حين رجع إلى مكة من هجرته إلى الحبشة حبسه أبو جهل وحبس معه عياش بن ربيعة ، وكان عياش ابن عم أبي جهل وأخاً له من أمه ، فلم يرحم واحداً منهما ، ولم يرع فيهما حق الأم ولا حقوق الأبوين .

ولم يكن فرعون هذه الأمة قاسياً على من يوقعه القدر في قبضته وحسب ، بل كان رجلاً غادراً يبحث عن الغدر ويوقظه ويسعى إليه ، ولقد مضى ذات مرة هو والحارث بن هشام حتى قدما على المدينة في أواخر عهد النبي بمكة وقيل أن يهاجر رسول الله ، وكان عياش أخوه لأمه قد هاجر إليها مع عمر ابن الخطاب .

ثم أقبل أبو جهل والحارث على عياش وقالوا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق قلب عياش لأمه ، فحذره عمر بن الخطاب من الرجلين وقال له : إنه والله ما يريدونك إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت !

فقال عياش : أبر قسم أى ، ولى هنالك مال فأخذه .

فقال له عمر : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عياش إلا أن يذهب معهما ويخرج من المدينة إلى مكة ليبر قسم أمه ويجمع ماله .

فلما رأى عمر منه ذلك ولم يستطع أن يرجعه عنه قال له :

أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجبية ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

ونخرج عياش على ناقة عمر معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل لعياش :

يا ابن أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟



فقال عياش : بلى . ثم أناخ راحلته وأناخ أبو جهل والحارث بعيريهما حتى يتحول أبو جهل معه ، فلما استووا بالأرض انقضا على عياش فأوثقاه وربطاه بالحبال ثم دخلا به مكة نهاراً وهما يصيحان بأهل مكة ويقولان : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاثكم كما فعلنا بسفيها هذا (١) .

فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إليه خبر هذين الأخوين : سلمة وعياش مع أبي جهل ، وأنهما يحبسان ويعذبان ، فلم يملك لهما رسول الله حينئذ إلا أن يدعو لهما في القنوت (٢) ويخصهما به ويسأل لهما الله حتى استجاب فنجوا وهاجرا إليه .

ولقد رحم الله عباده جميعاً — ومنهم أهل مكة المعاندون أنفسهم — حين هيا لرسوله أن يهاجر إلى المدينة وينقل دعوته إليها ، ثم أخذ الدين ينتشر وأمره يعلو ، ثم كان الأمر بالقتال حتى يذل الباطل للحق ويصدع النور كقناثف الظلمات .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٧٤ .  
(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٢٨ .



## مَشْرُوعِيَّةُ الْقِتَالِ

ردد بعض ذوى النفوس المريضة وأصحاب الغرض من أعداء الإسلام أن الإسلام دين حرب وعنف وغزو وقتال ، وأن استخدامه لهذه الوسائل كان هو السبب في نشره وسرعة ذبوعه . وجعلوا من غزوات الرسول — عليه الصلاة والسلام — أكبر الحجج لدعم ما ذهبوا إليه من القول الخاطيء والرأى الطائش . وما من شك لدى من ينصف الإنصاف كله أو بعضه أنه يرى البهتان واضحاً على هذه الدعاوى التي يرددها المغرضون ويروج لها المبطلون حين يلوح له من أول سطر في الدعوة الإسلامية أنها دعوة خير ورشد لدين شامل يعتمد على الحجة والبرهان ويخاطب ذوى العقول والأفهام ، وأنه لم يتخذ السيف ويشرع القتال إلا دفاعاً مشروعاً عن الخير الذى جاء يدافع عن بقائه ويعمل من أجله لترفل في نعمته البشرية كلها .

ثم هو يدافع عن الحجة التي أنار بها الطريق ليظل مضيقاً هادياً إلى الخير من حيث لا يبدأ عدواناً ولا يهيج أهل دين سماوى أو يقهرهم على الدخول فيه ما داموا يرضون التعايش السلمى بينهم وبينه ، ذلك التعايش الذى شاع الكلام عنه والاحتياى له في عصرنا الحديث .

والآية الكريمة التي تقول « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (١)

---

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦

كفيلة أن تمحو كل شبهة وأن تحقق كل عناد إذ هي تنص على الطريقة التي أراد بها الإسلام أن ينتشر وأن يعم وأن يتبعه الناس جميعاً بلا قوة ولا إكراه .

فالآية تدل بجلاء ووضوح على أن هذا الدين وقد ترك للإنسان حرية التفكير في اختيار دينه ، فإنها تمنع — رحمة بالإنسان ذاته — أن يكون أحق سفيها يطلق لحرية الرعناء أن تختار طريق الضلالة وسبيل التدمير فذكرته بأن أمامه رشدًا وغيًا ، وقد تبينا وافترقا ، ومن الخير والعقل والاستقامة أن لا تزل الحرية ويفسد الاختيار فيميل الإنسان مع الهوى ويختار الغواية ويقع في الشبهات . فاذا مال المرء وغوى كان على الراشدين من بنى جنسه أن يأخذوا بيده — ولو بالقسوة — حتى يهدوه إلى الطريق .

ولم يكن في الدعوات أرفق وأقوم من هذه الدعوة الرحيمة التي تطلق للإنسان حرية مع الأخذ بيده وإنارة السبيل أمامه ودلالته على الخير والشر حتى يرسل فكره ونور بصيرته لتتكشف له الغاية التي تؤمنه وتسعده .

أما أن يطلق المرء اختياره في ظلمات الشهوة والعسف فان ذلك لا يدعو إليه عقل مهما كان قليل التنبه ضعيف الأضواء .

بل لو كان هناك من يقول للإنسان : اختر ما شئت وافعل ما أردت فلن يكون عليك إثم مهما فعلت ولن تحاسب على ما جنيت لكان هذا الداعي مفسداً مخرباً ، ولكانت دعوته جديرة بالضرب عليها ، حتى ولو كانت شريعة لرتبة من المخلوقات هي أقل رتبة من مرتبة الإنسان .

ولقد كان أمر الله سبحانه لنبيه الكريم بقوله له « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) كان هذا الأمر جارياً في نفس التيار الذي جرت فيه آية الاختيار الرشيد ، إذ أمر الله نبيه أن يخاطب في الناس ناحيتين :

(١) سورة النحل الآية ١٢٥

ناحية العقل الذى تناسبه الحكمة التى أمر النبى أن تكون دعوته بها ليقنع العقل ويخضع لها . وناحية العاطفة التى تناسبها الموعظة الحسنة حتى لا تنفر الطباع منها وتصد النفوس عنها .

وكلا الناحيتين قد ذكرتهما الآية الأولى فى كلمة « الرشد » فى قوله سبحانه « قد تبين الرشد » ولا يكون الرشد بغير الحكمة والموعظة الحسنة ، وهما جناحان للدعوة الإسلامية لم يهملهما الرسول قط فى قوله من أقواله ولا فعلة منفعاله . ولم يكتب الدعوة من الدعوات مهما كانت مقبولة لدى العقول والقلوب أن تعم وتنتشر من غير أن يصيبها الأذى ، لأن الناس آلاف عادات ، فاذا وقعوا فى جهالة وألفوها حسبوا النور مغشياً للأبصار فغضوا عنه عيونهم املا يروه ، إلا أن دعوات الخير والحق من شأنها أن تصطبّر للأذى وتقيم على الضيم حتى تحقق ما جاءت لأجله ، ولو أنها ضاقت ذرعاً بالأذى والضيق لكانت فاقدة لعنصر القوة التى لا بد أن تتدرع به كل دعوة جاءت لتعيش وتخلقت لكى تسود .

والدعوة الإسلامية التى كانت أقوى الدعوات وأرشدتها ظلت فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، يصبر فيها الداعى وأصحابه على الأذى ويقيمون على الضيم وهم ماضون فى طريقهم لا يترددون ولا ينكصون ، ولعلمهم وحدهم — حينذاك — فى أرض الله كلها كانوا يرون فى ظلمات التعذيب والاستهزاء والمطاردة أمل المستقبل قريباً مضيئاً ، وكانت قلوبهم أقوى من كل حديد يضربون به ويقيدون فى كبوله كما كانت أرواحهم أعلى من كل نار وحرارة يكوون بها ويسجرون فيها .

وكان الاصطبار من النبى والمؤمنين على الأذى إيقاناً ووثوقاً بأن له نهاية يكون بعدها النصر ، وكان تنبيه الله لهم آنا بعد آنا بأنه يرى ذلك ويحكم

الأمر له من عوامل تثبيت قلوبهم وزيادة إيمانهم ، وكان من ذلك قوله تعالى  
لنبيه صلى الله عليه وسلم « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (١) .

وكان من استطاع من المسلمين أن يختمى بسلطان أهله استطاع بهذا أن  
يخفف عن نفسه من العناء والكيد ، ومن لم يستطع فر من العدوان مهاجراً ،  
ومن لم يجد ما يهاجر به اصطبر على التعذيب والتنكيل .

والنبي نفسه ذاق من الكيد صنوفاً وألواناً ، ولكنه مضى محتماً ناهضاً  
بعثته مبلغاً رسالته في قوة عجيبة لا يتناهى لها حد في الاحتمال ، حتى لقد  
استطاع بفيض منها على المستضعفين قوى خارقة جعلوا يحملون بها  
ويصبرون ، ثم لا يزالون بالموت إذا جاءهم ، بل به يستبشرون .

وما كان أعظم بلال بن رباح وهو يجر في جبل يشده صبيان المشركين في  
مكة ليعذبوا به حيناً ويصهروه في حر الرمال حيناً ثم يطلبون إليه وهم يهددونه  
بتشديد العذاب أن يكفر بمحمد ويضيقون عليه الخناق فيستعين بهم وبعذابهم ثم  
يزعق فيهم قائلاً : أحد ... أحد ...

هؤلاء الصبيان الذين حرضوا من آباءهم وجبابرتهم في ضوضاء العتب  
والكيد والتلذذ بتعذيب الموالى والضعفاء ، هل كانوا حين ذلك يحملون بأنهم  
سيدخلون الإسلام قريباً ، وربما كان منهم في الغد القريب من يقود جند المسلمين  
ويغزو في أطراف الأرض يدعو للدين الذي يعذبون اليوم أتباعه ويرفضون  
اتباعه ؟

ولم يكن أحد أعظم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمر بأسرة  
كاملة من المسلمين المستضعفين تعذب في سبيل الله ، ولا يرضى فرد واحد منها

أن يطيع معذبيه في كلمة تشقى نفوسهم من دين الله أو رسول الله ، ثم يقول النبي لأصحابه هؤلاء « اصبروا آل ياسر ، موعدكم الجنة » (١) .

أسرة ياسر بن عمار : كانت من ياسر بن عمار الأب وسمية الأم وعمار ابن ياسر ابنيهما . كانوا قد أسلموا اختياراً وبداراً . ولو كان الاختيار الصحيح قريناً للشهوة والتنعيم لاختاروا الكفر وأصبح عمار الصبي الناشئ أحد هؤلاء الغلمان الذين يشدون غيرهم في الحبال إلى العتب والرمضاء ، ولكن الصبي — مع والديه — أضاء له الحق وبانت له الحكمة وسمع من الرسول الموعظة الحسنة فاختار الرشد على الغي من غير إكراه . وكان الرشد الذي اختاره قاسياً مهلكاً ، ولكنه لم يرجع عنه مخافة قسوته وإهلاكه لأنه رآه وحده طريق النجاة .

واستشهدت أمه سمية من طعنة خبيثة سددها إليها أبو جهل بن هشام فقدر لها أن تفوز من بين جميع الرجال والنساء بأن كانت أول شهيد في الإسلام . ثم استشهد أبوه ياسر ، وظل عمار يخوض غماراً بعد غمار حتى قتله الفئة الباغية كما أنبأه رسول الله (٢) .

\* \* \*

ثم لاحت معالم التغيير لهذا الموقف الصابر منذ بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ، ثم تبدل الموقف كله عقب هجرة النبي إلى المدينة وبعد أن دخلت الأوس والخزرج في مبايعة النبي على كل ما يريده منهم الإسلام بغير جزاء دنيوى إلا الجنة .

ثم أخذت كفة الإسلام ترجح فلا ترضى ذلة ولا هواناً ، ولا تسينغ أذى

---

(١) الإصابة ج ١ ص ٥٠٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠٦ .



ولا عدواناً ، ثم تم الأمر حين أيد الله المسلمين بأن أذن لهم أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم وأموالهم إذا ظلموا ، ووعدهم الله أن يغلبوا إذا لم يكونوا من المعتدين ، وذلك حين قال سبحانه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » (١) .

وكان هذا الإذن من السماء بأن يقاتل المسلمون ظالمهم إنصافاً ورحمة ، بل لقد عم إذن السماء فكان إذناً لكل من ظلم وتحققت أركان ظلمه ولم يجد وسيلة أخرى غير القتال تنصفه وترد له حقه ، وفيه الوعد الحق بنصرة المظلوم ومعونة القدرة الإلهية له ليحصل على نصره ، وهو أمر لا نراه في حادثة بذاتها ، بل إنه ليكاد يكون قاعدة مقررّة لتسود عدالة الله وتحقق رحمته وتمضي سنته ولن نجد لسنة الله تبديلاً .

وبهذا الإذن من السماء — لواقع العدالة والرحمة — ارتفعت روح المسلمين في المدينة وبين الطرداء المهاجرين إلى الحبشة والراكبين لأول مرة لبحر الخيف ، وبين المستضعفين الباقين في مكة ، لأن أمراً بالقصاص العادل ممن ظلموهم قد لاح أفقه وانضحت معاملة وبنوده .

وبعثت الآية في المسلمين فكرة الإعداد للقتال والاستعداد للجهاد ، ثم كان أمراً مفروغاً منه أن يعتقد أهل المدينة القدماء والجدد أو الأنصار والمهاجرون أنهم سيلقون كيداً من داخل المدينة من المنافقين من اليهود وكيدا من خارجها ولا سيما من أهل مكة ، فكان عليهم أن يستعدوا لدفع الكيدين من الداخل والخارج ، في حين تتوالى عليهم تعاليم الدين الجديد لتنمو بمجتمعهم في مختلف الشؤون .

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ .

وحيث يدفع كيد النفاق أو الدس بالسياسة والتأديب والمقاطعة والعقاب فإنه لا يمكن دفع العدوان بالقتال إلا بقتال مثله ، فكان لا بد أن تنزل فيه آية للقتال ، وقد أصبح فرضاً على المسلمين فيه آداب تفرض وحدود توضع حتى لا يخرج المسلمون به إلى الخداع وغرور أو إلى بغى وعدوان .

وانظر إلى الإذن في أوله تجده إذناً لمجرد الدفاع عن نفس الجماعة الإسلامية ومالها ، وليس فرضاً حتماً مع إطباق العرب واليهود على المسلمين من داخل المدينة وخارجها ، ثم انظر إلى الأمر بالقتال حين اشتد الأمر بالمسلمين ففرضه الله عليهم ليلقوا به من قاتلهم دون من لم يتعرض لهم بقتال ، وذلك حين أنزل الله سبحانه وتعالى قوله : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١) .

وهكذا كان القتال محرماً ثم صار مأذوناً به ثم مأوراً به لمن بدأهم بالقتال والعدوان ثم مأوراً به للملاقاة المشركين . (٢)

ولم يكن بد هكذا من أن تشرع الحرب ، أو بالأحرى يشرع الاستعداد لها ، ولم يكن الداعى إليه رغبة من الدين أن يعلو أو شهوة من المسلمين أن يغلبوا ويستعلوا ، ولكن لأن أعداءهما بدعوا الكيد والدس والأذى ، ثم هم لن يتركوا كل ذلك ، بل لن يدعوا قتال المسلمين ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا ، وكان الأمر كما نبه الله سبحانه إليه في قوله « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (٣) .

وإذا كان طبع العدو ذلك فلا أقل من أن يقابل بمثل ما ينوى وما يفعل ،

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

ثم يكون القتال في جانب العقيدة والحق أولى منه في جانب الكفر والباطل ، وهذا ما فعله الرسول وفعله أصحابه ثم فعله المسلمون .

وكان لا بد أيضاً من أن توضع آداب للسلوك إبان الحرب وبعد أن تضع الحرب أوزارها ، وذلك بالنسبة للمحاربين من المسلمين ومعاملة المهزومين من الأعداء ، لئلا تمضي الحرب إلى التدمير والغلواء التي رأينا حروب اليوم قد مضت إليهما مع ادعاء الناس أنهم ارتقوا في الإنسانية درجات ودرجات .

وكان من هذه القواعد أن يلتقي المسلمون السلاح ويكفوا عن القتال متى كف العدو عنه وألتي سلاحه ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (١) وفي قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٢) .

وكذلك سائرت فريضة الجهاد فطرة الناس طرداً وعكساً ، أما طرداً فإنها لم تجرد أصحاب العقائد والآراء والحقوق من التسليح لها والتقوى لنصرتها وإذاعتها . وأما عكساً فإنها لم تدع من حق خصومها أن يتركوا حتى يعتدوا على العقائد ويعقلوا الآراء وينتهبوا الحقوق ، بل شرعت أن يقاتلوا حتى يسود الحق وتصان الحرمات ويحتمى الضعفاء .

وقد أدب القرآن مقاتلة المسلمين بقوله « ولا تعتدوا » حتى لا يجاوزوا العدل في أثناء الحرب ، التي تستشري فيها النفوس .

وأدب النبي مقاتلة المسلمين بأدب القرآن فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صغيراً ولا امرأة » .

(١) سورة النساء الآية ٩٠

(٢) سورة الأنفال الآية ٦١ .

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل مكة بعد فتحها أكبر مثل في الرفق في الفتح حتى ولو كان عنوة ، وأعظم آية في التحذير وفي العفو بعد الانتصار .  
وقد تبع النبي في التأدب بأدب الحرب أصحابه من القادة والجنود جميعاً ، فأوصى أبو بكر رضي الله عنه جنده بصرهم بسياسة الحرب ومن ذلك وصيته ليزيد بن أبي سفيان (١) ومثله ما كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الردة — وكانوا أشد من نكب بهم الإسلام بعد اجتماعه :

« وإني أنفذت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك » (٢) .

ولقد كانت هذه الآداب أولى بالاتباع لو أن القتال نشب بين فئتين من المسلمين ، ونرى ذلك في مثل وصية علي بن أبي طالب لجنده في حرب الجمل إذ يقول :

« ألا لا يجهز على جريح ولا يتبع مول ولا يطعن في وجه مدبر ولا يقتل أسير ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن » (٣) .

ولا يستطيع — في مثل كتابنا هذا — أن تحصى آيات الكتاب ولا أحاديث النبي في تعاليم القتال ومراعاة الحقوق الإنسانية والحفاظ على آثار المدنية التي بلغتها الأرض من المصانع والزروع والأموال فانه شيء كثير .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) مختارات من الخطب ص ١٦٦ .

(٣) جعفر بن محمد ص ٩ .

ولم يكن ذلك كله إلا لتنحصر الغاية في نطاق نصرة الحق وإعزاز كلمة الله وإن كان ذلك يستوجب أحياناً غيظ العدو والغلبة عليه حتى ينكسر أنفه ويندفع كيده ويزهق باطله ، وحتى يمهد للحق ويتسنى له أن يسود وللخير أن يعم الناس .

وقتل المسلمين لم يكن قط قصداً لمغنم مادي ولا للعجلة إليه لو سنحت الفرصة لجندي أو لجماعة من الجند أن ينهبوا مما تصل إليه أيديهم من الغنائم . ومن أجل ذلك عاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الغلول ، وهو أن يستولى أحد من الجند على بعض الغنائم بغير حق ، بل إن القرآن نهى عنه في قوله تعالى « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » (١) . ولم يكن هذا تحريماً على الجند وحسب بل كان نهياً للنبي وتحريماً عليه أيضاً ، وذلك حيث يقول الله سبحانه « وما كان لنبي أن يغلل » (٢) .

ولقد كانت عاقبة القتال في أحد ما عرف من الهزيمة حين استعجلت طائفته من المسلمين الغنائم فأسرعت إليها وتركت مواقعها التي أمر رسول الله بالتزامها والثبات عندها .

وفي داخل الدائرة الضيقة من مشروعية القتال في الإسلام يتجهز المسلمون ويعد المقاتلون أنفسهم لا طمعاً في غنيمة ولا غلبة ، بل ربما استوى عندهم الفوز والاستشهاد — من حيث لا يكون لفرد منهم عائدة من الفوز والانتصار أو تكون عليه وحده وطأة الانكسار والموت — وكان الاستشهاد أفضل لو أنهم طلبوا الآخرة وباعوا من أجلها الدنيا بيعاً عاجلاً سريعاً .

وكان ذلك من المسلمين طاعة خالصة لقوله تعالى : « فليقاتل في سبيل

(١) سورة آل عمران الآية ١٦١ .

(٢) السورة السابقة والآية نفسها .

الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» (١) ولقوله سبحانه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٢) .

والآيات والأحاديث الواردة في فضل الشهداء كثيرة العدد نكتفي بأن نشير منها إلى فضلهم بآيتين وحديثين :

أما الآيتان فقولته تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (٣) وقوله « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٤) وأما الحديثان فقولته صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة من بني آدم وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول الثلاثة الذين يدخلون الجنة فالشهيد - ثم أكمل الحديث - (٥) » ثم قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها » (٦) .

وحتى الجرح الذي يجرحه المقاتل في سبيل الله لا يضيع ثوابه ، بل يجازى عليه أحسن الجزاء ، وقد قال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي

(١) سورة النساء الآية ٧٤ •

(٢) سورة التوبة الآية ١١١ •

(٣) سورة محمد الآية ٤ •

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٩

(٥) لباب الآداب ص ١٥٦ •

(٦) المرجع نفسه ص ١٦١ •

نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً : اللون لون الدم والريح ريح المسك » (١) .  
وفى الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « ليس شئ أحب إلى الله من قطرتين — أو أثرتين — قطرة دمة من خشية الله ، وقطرة دم تراق فى سبيل الله » (٢) .

وهل نستطيع اليوم أن نقيس على ذلك فنقول : إن لمن يتبرع من دمه حظاً من هذا الحديث لو كان تبرعه لصالح المسلمين ؟ ولو أن هذا التبرع لا يؤذيه — أظننا لا نبعد عن الصواب لو ظننا ذلك ورجونا للمتبرعين بدمائهم أكبر الثواب .  
ثم لا يخفى أن الجهاد فرض على المسلمين جميعاً باللسان والمال واليد والنفس .  
وعلى كل مسلم أن يجاهد من قبله وثغره بالنوع الذى يطيقه من هذه الأسلحة (٣)  
متى استطاع أو متى طلبت منه المعركة مع العدو النوع الذى يحتاجه المسلمون  
كى ينتصروا . وهذا الفرض قد جاء به قوله تعالى « انفروا خفافاً وثقالا  
وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (٤) .

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٤١ .





بِئَالْجِجْرَة



## بَعْدَ الْهَجْرَةِ

من الحق أن يقال إن الرسول الكريم لم يكن يقصد من هجرته إلى المدينة غير أمرين اثنين - وربما كان ذلك على طريق الحصر في أول أن هاجر :  
 أولها أنه يبتعد هو وأصحابه - ولا سيما الضعفاء منهم - عن الأذى والاضطهاد الذي أصابه وأصابهم من قوم لم يبد أن عداوتهم ستنتهى إلى حد تقف عنده ، لأن قريشاً ماضية في كفرانها ، والرسول عليه الصلاة والسلام دائب في دعوته .  
 وقريش تضيف إلى الأذى كل يوم لوناً جديداً ، كما أنه صلى الله عليه وسلم مضيف إلى دعوته كل يوم جديداً من الفروض والتعاليم .  
 بل لقد مضت عداوة قريش إلى أقصى ما تبلغ إليه العداوات - كما قلنا من قبل - فأرادت قتل النبي غدرًا وحرضت عليه ثم مضت تعمل له صراحة وانكشافاً وخرجت إليه ، حتى كانت ليلة الهجرة ، فانحطم أكثر ما أعدته قريش وتبدد ما جمعت له .

وثاني الأمرين من قصد الهجرة أن يتاح للدعوة الإسلامية موطن أكثر حرية وتمكيناً لها وإفساحاً للإقبال عليها ، من حيث يجد الداعي وأصحابه ظلاً من الأمن والسلامة يقيمون فيه شعائرهم ويشيدون أركان دينهم الذي قضى الله أن يستقيم عوده ويتم بناؤه في مدينة الأنصار .

وه! لابد منه أن لا ينتهى أمر مكة بخروج النبي منها ، بل إنه ليكونن أشد وأقوى ، إذ ليس من بلد يجب أن يصطلى بنار هذه الدعوة ويحترق في لهبها أكثر من مكة لأنها العدو الأول لها ، ولأنها لم تدع من سبيل لإيذاء أتباعها من أقوياء وضعفاء ، حتى صاحب الدعوة ذاته الذى كان السيف قد أرهف عليه ليؤخذ خلسة وغدراً ، ثم صراحة وبيانا .

وأمر آخر أشد هولاً على طلاب الدنيا من أهل مكة : ذلك أن المدينة في طريق التجارة إلى الشام وهو أكبر الطرق ربحاً وكسباً . وثاني الطريقين إلى اليمن . وعلى هذين الطريقين يبنى كل اقتصاد مكة وحركة المال فيها .

أما ثالث هذه الطرق فهو الطريق إلى العراق ، وهو أبعدا وأصعبا وأقلها ماء وأشققها سيراً ، ولعل قريشاً لم تكن قد سلكته أو مهدته كالطريقين الآخرين .

ولا مناص حين يفكر الإنسان كأهل مكة — حينئذ — أن يلتبس بعقلية جاهلية ، وهى إما حب العدوان لذاته أو التغلب الماحق المتأدى للإبقاء على الرزق والعيش ، ومن أجل هذين قامت أيام العرب في الجاهلية وكانت العصبية أول عامل فيها .

فهل يستطيع أحد أن يننى عن أهل مكة أنهم لن يفكروا في أن يزيلوا هذه العقبة التى قامت مستعرضة في الطريق ، على أن يبذلوا في إلزاتها كل ما أمكنهم من الوسائل ، وحتى لو اضطهرهم الأمر إلى الزحف بأسلحتهم إليها ؟

أظنه لا يستطيع أحد أن يننى ذلك ، وأن لا يؤكد أن الإسلام ظل مهدداً على الدوام ومكة في طريقه أكثر من تهديد المدينة لطريق قريش في تجارتها . وقد ثبت ذلك ثبوتاً قاطعاً بحوادث متعددة منها ما كان فردياً ومنها ما كان جماعياً :

أما الفردية فمنها ما روى عن ابن مسعود قال :

انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن خلف ، وكان إذا أمية انطلق إلى الشام يمر بالمدينة فينزل عليه ، فقال أمية له : انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس طفت .

فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل فقال : من هذا الذى يطوف آمناً ؟ قال : أنا سعد ، فقال : أنطوف آمناً وقد آوئتم محمدا وأصحابه ؟ قال : نعم . فتلاحيا ، فقال أمية : لا ترفع صوتك على أبي الحكم — أى أبى جهل — فانه سيد أهل الوادى .

فقال سعد : والله لو منعنى من الطواف لقطعت عليك متجرك بالشام . قال : فجعل أمية يقول : لا ترفع صوتك . فغضب سعد وقال : دعنا منك ، فانى سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : يزعم أنه قاتلك ! قال أمية : إياى ؟ فقال له : نعم ، والله ما يكذب محمد !

فرجع أمية إلى امرأته فقال : أما تعلمين ما قال لى أخى اليربى ؟ زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلى . فقالت له امرأته : والله ما يكذب محمد (١) . وأما الحوادث الجماعية فيها ما فعلته قريش إذ جعلت تحرض العرب كافة على النبي ، ثم زحفت إلى بدر لقتاله دون أن تنذره حتى بعد سلامة تجارتهم الشامية ، ثم حاولت — فيما بعد — غزو المدينة فى وقعة الأحزاب ، ثم ارتد منها من ارتد عن الإسلام بعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

وكان على أهل مكة أن يضاعفوا الاستعداد بعد أن علموا شروط بيعة الأنصار للنبي فى العقبة الأولى (٢) ، ثم كان عليهم أن يفزعوا كل الفزع ولا

(١) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٠٣ وستأتى بفيية هذه القصة بعد . حيث يتحقق مقتل أمية ويصدق محمد .

(٢) انظر شروط البيعة فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥٤ .

يدوقوا هداة لجنوبهم بعد العمل الرائع الذى أقدم عليه النبي في المدينة والذي حقق به وحدة دينية بين أهلها من جهة ، وبينهم وبين المهاجرين من جهة أخرى .

وتكتلت المدينة بأسرها في إخاء لم يحدث له مثيل بين أى جماعة من جماعات الناس ، وأمكن للنبي بما صنع من الإخاء أن يزيل الخلافات في مجتمعه الجديد ، وأن يجعل منه منفذاً وعيوناً ورقباء على الدس والنفاق ، وأن يقيم منه حصناً يحمي المدينة من أى عدوان .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن هذا الإخاء كان إخاء مؤقتاً حتى يستقر أمر الإسلام ويكثر أهله فيعود الأمر إلى طبيعة الناس وفطرتهم ، أى يعود إلى إخاء الدم والقربى والدين معاً ، وقد حدث ذلك فنسخ هذا الإخاء بعد بدر بقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المهاجرين والأنصار » (١) .

آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بينهم على الحق والمواساة ، وأن يتوارثوا فيما بينهم بعد الممات دون ذوى الأرحام — وكانت قد تقطعت في مكة — ثم انعقدت أوامر هذا الإخاء بين تسعين رجلاً أو مائة ، خمسة وأربعون من المهاجرين ومثلهم من الأنصار ، أو خمسون من كل منهما . وتحالف الناس عليه في دار أنس .

ولقد ظل هذا الإخاء منذ عقده النبي بعد هجرته إلى المدينة حتى نسخ بعد بدر فرجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذويه مع ضرورة اتفاقهم في الدين (٢) .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥ وسورة الأحزاب الآية ٦ . ومن حضارة الإسلام ج ١ في تجربة الإخاء ص ٤٢ .  
(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٣٨ .

وبميثاق الإخاء لم يكن لأحد أن يستطيع ولم يكن لقوة أن تفكر في أن تكون في هذه الجماعة المترابطة كالبنيان ثغرة يدخل منها ، لا من خارج المدينة ولا من داخلها .

وكان على يهود المدينة بل على يهود الجزيرة كلها — أن يؤمنوا بهذه الرسالة لأنهم مدعوون مثل سواهم بل قبل غيرهم إليها لأن التوراة بشرت بمحمد رسولا كما بشر الإنجيل .

غير أن استعلاء اليهود والخطورة التي كانوا عليها جعلتهم بأنفون من أن يسلموا — غير قليل منهم قدرت لهم السعادة فاهتدوا إلى الإيمان ، وجماعة آخرين منهم تعوزوا بالإسلام وهم يبطنون الكفر — وكان الرسول أعلم بحقد أولئك ونفاق هؤلاء ، فرأى بصائب رأيه أن يهادنهم ليستطيع في فترة المهادنة أن يشيد بناءه ويقوى أركانه ، وحتى يترك لليهود أملا وفرصة يزولون فيهما عن جحودهم واستكبارهم . ثم يتفرغ النبي في أثناء ذلك لعدوه الأول من قريش ، فربما غدا على المدينة من قريب يغزوها بنحيله ورجله ، فلا تجد الدعوة الإسلامية حصناً منيعاً تحتمى به من الداخل والخارج إذا أطبق عليها الأعداء .

وكان العقد مع يهود المدينة أن يلتزموا جانب الحياد (١) . وكانت المصالحة مع بني النضير منهم على أن لا يكونوا له أو عليه (٢) ، فاستطاعت المدينة كلها — في ظاهر الأمر — أن تكون وحدة لدفع أي عدوان أو الخلاص منه دون انتقاض العهد وانقضاض البناء (٣) .

ولم تكن بيعة العقبة الأولى قد تعرضت لفكر من عدوان خارجي على

(١) جوامع السيرة ص ٩٩ .

(٢) تفسير البيضاوي في أول سورة الحشر .

(٣) سنعود مرة أخرى الى هذا العقد عند الكلام على نتائج وقعة بدر .

المدينة ، بل كانت كلها شروطاً — كما تقدمت الإشارة إليها — فى عمل دفاعى ضد كل من يعتدى على النبى وأصحابه ودينه يتولاه الأنصار من الآباء والأبناء والذرارى .

وربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمل فى أن يسلم أهل مكة مهما طال بهم أمد العناد وزمن الشرك . ومن هنا يستطيع المفكر أن ينبى عن الرسول الكريم نية العدوان ، ويؤكد أن كل ما فعله من استعداد إنما كان لتأمين المدينة وإرخاء جو من السلام عليها ، وفى ظل هذا السلام يمكن للدعوة الإسلامية أن تستمكن وأن تنطلق منها لكل أنحاء العالم أنوار وأضواء .

ولكن لم تكن هذه كل الصورة التى تنضح فيها كل الظلال ، ولم تكن هذه هى ألوانها وحسب ، وإنما كانت هناك ظلال أخرى وألوان .

فالمهاجرون مع النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا من أهلهم وأموالهم وديارهم فباتوا فى مناخ جديد ، وبات من بقى من أهلهم فى مكة عرضة لعذاب أشد واضطهاد أكبر ، ثم نهبت الأموال التى تركوها واحتلت الديار التى خرجوا عنها .

والكعبة والبلد الحرام وهما ما هما من التقديس والإجلال أصبحتا موطوءين بالكفر والأصنام والعناد والظلم ، وكأن قریشاً بدت منتصرة كل الانتصار باخراج المسلمين ومتطاولة عليهم . وكأنما لن يتاح لأحد من المسلمين المهاجرين أن يفكر فى العودة إلى بلده وأهله أو استرداد منزله وماله .

فلا أقل من أن يحس هؤلاء الطاغون المعاندون أن مصالحهم الدنيوية الأولى قد أصبحت فى غير مأمن ، وأنها أصبحت فى ضمان أهل المدينة إذ هم على طريق الشام ، وأنهم لن ينجوا من التهديد إلا إذا نزلوا عن الغى الذى هم متهادون فيه .



ومن الحق أن أهل مكة قد أحسوا ذلك وحسبوا له ألف حساب — كما يقال — وعمرهم الشعور به منذ أول هجرة النبي إلى المدينة وفكروا فيه طويلاً، بل شعروا به منذ عقد النبي مع الأنصار شروط نصرته في بيعة العقبة الأولى .

وقد حدث أن هدد سعد بن معاذ صديقه أمية بن خلف تهديداً صريحاً — كما أوردنا قصته من قبل — ولذلك فقد أخذ أهل مكة يسرون غيراتهم إلى الشام أكثر حرصاً وأوفر عمالاً وأشمل بضاعة وأموالاً وأقوى قيادة وأحنك دربة على ابتداع الحيل وسلوك الطريق .

ولم يكن من شأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يفكر في الانتقام من أهل مكة كما فعلوا وما نهبوا وما احتلوا من الديار وباعوا من العقار، وإلا لعاقبهم به حين فتح مكة — فيما بعد — ولم يطلقهم أحراراً، ولكنه كان يريد أن يسلموا، ولا بأس إن هم آمنوا أن يذهبوا بكل ما غنموه، وأن يغتفر لهم كل ذنب ارتكبوه .

فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أراد — الآن — أن يحسوا بقوة المدينة فإنه لم يرد غير أن يخففوا من العناد والغلواء، أو أن يقبلوا على الطاعة ويدخلوا في الدين — وذلك خبز لهم لو علموا — ولو قد فعلوا ذلك لما فكر النبي الذي أرسله الله رحمة للعالمين أن يضر أقرب الناس إليه أو ينتزع من يد أى واحد منهم شروى نقيز .



## خُرُوجُ السَّرَايَا

وبعد ثمانية أشهر من الهجرة لما أن تم للنبي عليه الصلاة والسلام توحيد المدينة ومعاهدة اليهود على المسألة بدأ عليه الصلاة والسلام في تنفيذ خطته التي كان لا بد له من أن يسير عليها ، وهي أن يشعر قريشاً بقوته أكثر من أن تشعر بأن مصالحها في التجارة قد أصبحت مهددة ، لأن الأصل الذي يهتم به لحماية الدعوة أن يعمل جاهداً لحماية المدينة من كل جهاتها ، ولا يكون ذلك إلا بحماية طرقها ومسالكها في أى اتجاه ، وعلى مدى بعيد لئلا تؤخذ على غرة ، ولئلا تمتد خيوط الدسائس من اليهود إلى الأعراب المجاورين .

وقد بدأ النبي العمل باخراج (دورياته) المسلحة — كما نسميها نحن — والتي عرفت في أيامه باسم السرايا (١) ، راميةً من إخراجها إلى جملة أهداف نبينا فيما يلي :

فالهدف الأول : إشعار قريش بما صار للإسلام من قوة في المدينة ، وأن على قريش أن تخفف من عداوتها للإسلام وأن ترفع يد الإرهاب عن المسلمين الباقين في مكة ، إذ صار في استطاعة المسلمين في المدينة أن يقتصوا من

---

(١) السرايا : جمع سرية بفتح فسكون مع ياء مشددة . وهي مالم يخرج فيها رسول الله أو خرج ولم يحارب . أما التي خرج فيها وحارب فتسمى الغزوات .

أهل مكة بأن يقطعوا عليهم طريق القوافل بينهم وبين الشام وهى أهم طريق .  
ومن ثم يمكن للمسلمين أن يقضوا على قوة مكة الاقتصادية التى كانت  
أول الأسباب فى طغيانها وجحود أهلها . ومن غير ما شك فان قريشاً ستفكر  
جدياً — لو فكرت فى سداد — فى أن تغير من خطتها فى العداوة والعناد وتعمل على  
التفاهم مع المسلمين طائفة راضية أو كارهة مقهورة .

وأهم من ذلك أن قريشاً حين تطمع فى هذا التفاهم يجب أن تعرف جيد  
المعرفة أن المسلمين لن يرضوا بأى اتفاق ما لم تترك لهم مكة حرية الدعوة إلى  
الدين وتمتنع عن خطتها التى سارت عليها فى تأليب العرب على الرسول .

وسلامة التجارة وطريق القوافل فى نظر أهل مكة أمر حياة أو موت ،  
فمكة لا تعيش إلا على التجارة لأنها واد غيزدى زرع ، فما لم تسلم لها وتأمين عليها  
فى الطريق — ولا سيما طريق الشام — فان بقاءها واقتصادها مهدد — لا محالة —  
بالانهيار والموت .

والهدف الثانى : أن يحكم النبى عليه الصلاة والسلام الخطة ويتبها للزمن  
والمستقبل ، ومن أجل ذلك رغب فى أن يعقد المحالفات والموادعات بينه وبين  
القبائل التى تضرب مساكنها وخيامها حول المدينة ولا سيما القبائل التى تسكن  
المنطقة الغربية من المدينة بينها وبين شاطئ البحر الأحمر حتى يتم لها تأمين الطريق  
الشامى ويستحكم أمره فيه ، فلا يبقى هناك من سبيل لعبور قوافل قريش إلا وهى  
تخسب للمدينة حسابها الذى كان ساقطاً فى نظرها من قبل ، لأن أهل المدينة  
لم يحاولوا من قبل أن يسابقوا قريشاً فى تجارتها واكتفوا بالزرع والغرس ،  
أما الآن فربما أرغمها الأمر لعقد محالفة مع النبى صلى الله عليه وسلم وأنفها  
راغم .

والهدف الثالث : إيقاع الرعب فى قلوب يهود المدينة وغيرهم من اليهود  
الذين يضربون حول المدينة من قرب ومن بعد ، وهؤلاء وأولئك لم يهدءوا قط

أو يناموا عن الدس للنبي والكيد له بكل ما استطاعوا من السبل وصنعوا من الحيل ، وكل ما اقتدروا عليه من الوسائل منذ قدم إلى المدينة .

ولقد كانوا يفلحون أحياناً في إيقاظ الفتن وتأريث نيران العداوة بين الأوس والخزرج ليدمروا قوة الوحدة ، التي بناها النبي صلى الله عليه وسلم وشد أزرها بالإخاء الذي عقده بين المسلمين .

وكان بين الأوس والخزرج في الجاهلية عداوات وثارات — تحفل بها كتب السيرة — ولم يكن الناس قد استأصلت فيهم روح الإسلام وآدابه ، وكان اليهود يعرفون ذلك فيعملون في الدسائس المتلاحقة حتى لا تستأصل في الأنصار خاصة روح المودة وروابط الإخاء .

والهدف الرابع : أنه لم يعد خفياً على النبي وقيادته الحكيمة أن إخراج السرايا كفيل بأن يرفع من الروح المعنوى للمسلمين ويشعرهم بقوتهم ، ثم يزيدهم إقبالاً على التأهب النفسى والاستعداد للقتال .

ومن اليسير أن يدرك أن ركوب الناس إلى الدعة والأمن يكون غفلة منهم وسبيلاً إلى فساد نفوسهم واستسلامهم للخذلان ، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يدفع عن المدينة ركونها إلى الدعة واستناتها للأمان ، فأخذ يجهز السرية بعد السرية ، ويعد الفتيان لتحمل الأعباء التي كان يراها قادمة لا محالة ليحملها المسلمون من قريب ، ففتح أمام الشباب باب الفتوة على مصراعيه للتدريب والتدريب .

ولقد اتضح من السيرة التي اتبعتها هذه السرايا أن أعمالها لم تخرج قط عن دائرة الاستطلاع ، أى أنها في منطق الفن العسكرى الحديث ومفهومه لم تكن سوى ( دوريات ) استطلاعية ، ولم تكن حملات وطلائع تبعث للحرب والقتال . وليس أدل على ذلك من أنها تجنب في حذر بالغ أن تشتبك في شجار مسلح ،

ولا سيما مع القوافل القرشية صغيرها وكبيرها مهما التقت في هذه القوافل بأعداء كان لهم من قبل جرائم كبرى وآثام .

ولقد كان ضبط النفس إلى هذا الحد العجيب يكاد يكون أمراً فريداً في بابيه من أصحاب محمد والخاضعين لأوامره ، في حين يكون هذا أمراً متعذراً صعباً على كل من يتاح له أن يعترض طريق عدوه ويتحكم فيه بسبب ظروفه المواتية كل التحكم ، فإذا شاء أن يعترض فيه شيئاً اعترضه في يسر وسهولة وإذا قوتل فيه ضمن لنفسه الغلبة على من يقاتله لمعرفته به وقرب أمداده منه .

ولكن هذه السرايا كانت تحت مراقبة مشددة من الرسول — كما قلنا — وعليها أن تنفذ ما قد أمرها به قائدها — في خضوع تام — من تجنب الاشتباك في أى قتال .

وربما كانت الأعداد الضئيلة التي تتكون منها بعض السرايا قد قصد إليها النبي لينفي عنها أن تهتم بأى نيات عدوانية ، بل ويجردها من القوة التي تجرئها على العدوان إذا قصدت إليه وهيأت لها الظروف .

على أن قوافل قريش — كما قلنا من قبل — قد أخذت بعد هجرة النبي إلى المدينة تتجمع صغارها أو لا تخرج من مكة حتى تصبح عيرات جامعة لعدد من التجار والسادات وعامة الناس ، ثم جعلت تسير تحت حراسة مشددة قوية ، وجعلوا يجندون لهذه الحراسة عدداً كبيراً من رجال القبائل الحذرين المدربين .

وحقاً يعني أهل المدينة الأنصار من أية تهمة توجه إليهم في أمر هذه السرايا فقد كانت في أولها خالصة من المهاجرين ، وربما لم يكن بالوسع أن يخرج فيها أحد من الأنصار — عملاً بمبايعة العقبة — ولأنهم لم يكونوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم فيها إلا على حمايته ضد العدوان ، ولم يعاهدوه على أن يكونوا معه في حرب يبدءون فيها بالهجوم .

وفي خلال عامين من بدء الهجرة كان عدد السرايا التي خرجت من المدينة مؤلفة من رجال — أكثرهم من المهاجرين وأقلهم من الأنصار — قد بلغ ثمانياً ، خرج بعضها في العام الأول ، وخرج بعضها الآخر في أوائل العام الثاني . ومع اختلاف الرواة في ترتيب هذه السرايا فانا نرجح ما قيل من أن أول سرية خرجت قد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادتها بنفسه ، كما تولى من بعدها ثلاث سرايا ، فبلغت كلها تحت قيادته أربعاً . وكان أولها إلى الأبواء ثم إلى بواط ثم إلى العشيرة ثم إلى سفوان .

ولقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منذ مقدمه إليها إلى صفر في السنة الثانية من الهجرة لم يتحرك ، ثم خرج في صفر هذا حتى بلغ « ودان » (١) على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة يريد أن يتصل بيني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة ، فهذه غزوة الأبواء .

فودت بنو ضمرة مسالة النبي وعاهدته على أن لا تحاربه ، فعقد النبي موادة مع سيدهم مخشى بن عمرو ، ثم رجع رسول الله إلى المدينة بعد خمسة عشر يوماً ، ولم يلق كيداً ولا حرباً (٢) .

وكان لواء هذه السرية لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب ، وهي أول غزوة خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يقودها ، حتى يؤمن المدينة مما حولها ، وليكون عمله قدوة وتشجيعاً لمن يأمرهم بالخروج من بعد .  
وحين عاد الرسول من غزوته (٣) هذه في الأبواء بعث عبيدة بن الحارث من هذه السنة نفسها ومعه لواء أبيض على سرية من ستين أو ثمانين من المهاجرين

---

(١) ودان : بفتح الواو ودال مشددة مفتوحة ، قرية جامعة قريبة من الجحفة وهي لضمرة وغفار وكنانة — معجم البلدان في ودان .  
(٢) جوامع السيرة ص ١٠٠ — الدرر ص ١٠٣ .  
(٣) التعبير بالغزوة هنا مجاز لأنها سرية .

ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار عبيدة بمن معه حتى بلغوا ماء بالحجاز إلى بطن رابغ بأسفل « ثنية المرة » (١) فوجد عندها جماعة من قریش يبلغ أفرادها المائتين ، وقد قيل إنه كان عليها عكرمة بن أبي جهل ، ويبدو أنه حدثت مشادة بين الفريقين بالرماية دون المسايمة ، ولكن لم يقع بينهما التحام .

غير أن سعد بن أبي وقاص أحد رجال السرية الإسلامية رمى بسهم من المشركين أو هو قد رمى به المشركين — وعلى رأى من قال إنه كان هو الرامى — فانه يقول : إن سعدا كان يفتخر بذلك قائلا : وإني لأول المسلمين رمى المشركين بسهم (٢) . كما كان عبيدة بن الحارث صاحب أول راية — بعد رسول الله — في الإسلام .

وكان طبيعياً أن يوكل إلى سعد بن أبي وقاص بعد رجوع هذه السرية أن يخرج على سرية أخرى يقودها بنفسه لاستطلاع غير أخرى ستمر بالمكان الذى حدد لسعد أن يخرج إليه .

فخرج في ثمانية من المهاجرين على لواء أبيض يحمله المقداد بن عمرو الذى كان قد فر من المشركين إلى السرية السابقة : سرية عبيدة بن الحارث . فانه كان قد نتج عن الترامى بالسهم بين الفريقين والبعد والضرب بين رجالهما أن فر من الكفار يومئذ المقداد بن عمرو هذا وعتبة بن غزوان ، وكانا قد خرجا في عيز عكرمة بن أبي جهل ليتخذوا من هذا الخروج وسيلة للوصول في سر إلى المسلمين . وكان هذان الرجلان قديمى العهد بالإسلام إلا أنهما لم يكونا يجدان سبيلاً ميسراً إلى اللحاق برسول الله .

- 
- (١) ثنية المرة بفتح الميم وتخفيف الراء كأنه تخفيف من المرأة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم مر بها قبل ذلك مع أبى بكر الصديق ودليهما في الهجرة — معجم البلدان فى ثنية .
- (٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٦٦ .



ومضى سعد بن أبي وقاص بسريره حتى بلغ مكاناً يقال له «الحرار» (١) فلم يلتق سعد في خروجه بأحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى هذه السرية أن لا تجاوز الحرار ، فلما بلغت المكان كانت غير قريش قد سبقها بيوم واحد أو يومين ، وكان مع العير ستون رجلاً ، وقد اختلفوا فيمن كان يقود قافلة قريش هذه ، أهو أبو سفيان بن حرب بن أمية أم مكرز ابن حفص ، غير أنهم يرجحون أنه كان أبا سفيان (٢) .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب في سرية خرج بها في السنة نفسها على رأس سبعة أشهر من الهجرة تحت لواء أبيض كذلك يحمله أبو مرثد ، وليس فيها من الأنصار أحد ، وكان حمزة على ثلاثين راكباً من المهاجرين .

— ويبدو أنه لما كان حمزة في غزوة الأبواء صاحب اللواء الأبيض فيها ثم كان قائداً على هذه السرية فقد اشبه الأمر على بعض الرواة حتى جعلوه هو قائد السرية الأولى وقد أوضحناه — .

وقد حان لهذه السرية — وكلها كانت من الركبان — أن تعترض قافلة لقريش على سيف البحر كانت مصعدة من مكة إلى الشام ، وكان عليها أبو جهل ابن هشام على ثلثمائة من أهل مكة . وكاد يحدث بين الفريقين شيء ، إلا أن مجدي ابن عمرو الجهني — بفضل ما كان له من موادعة الطرفين — استطاع أن يقوم حاجزاً بينهما فمرت القافلة بسلام .

ومهما اختلف الرواة في أي الرجلين خرجت سريره أولاً : حمزة أم عبيدة ،

---

(١) الخوارزمي قال انه واد من أودية المدينة وقيل موضع قرب الجحفة وقيل بارض الحجاز — معجم البلدان في خوار .  
(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ .

فأنها — على أية حال — أول راية عقدتها رسول الله لأحد من المسلمين (١) .

ثم خرج رسول الله في سرية من سراياه التي يقودها بنفسه حتى بلغ بواط من ناحية رضوى (٢) ، وكان قد حان لهذه السرية أن تعترض عيرات لقريش وفيها أمية بن خلف ومائة رجل من المشركين وألفان وخمسمائة بعير . إلا أنها قد نجت من الاعتراض إذ سبقت في الطريق ، فرجع النبي إلى المدينة ، ثم لبث فيها بقية من ربيع الآخر وبعضاً من جمادى الأولى . ومضت العيرات إلى الشام .

ثم عاود رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج في سرية ثالثة حتى بلغ العشيرة (٣) . وفي هذه السرية لقي بني مدلج ف عقدوا مع النبي معاهدة وادعوه فيها . وكان سبب خروجه ما بلغه من أن العيرات السابقة التي عليها أمية بن خلف قد أنهت تجارتها في الشام وثمرت للخروج منه عائدة في الطريق .

وقد حمل لواء النبي في هذه السرية أيضاً حمزة بن عبد المطلب . وفيها لقب رسول الله علياً ابن عمه أبي طالب بأبي تراب . لأنه رآه هناك منتحياً ناحية وقد نام مستغرقاً في تراب لين . فحركه برجله وقال له « قم أبا تراب » . ويبدو مما حدث لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن الأعمال في هذه السرايا كانت كالتدريبات للفدائيين وأعمال الفداء — كما نقول في عصرنا — ليواجه الفدائيون أشد حالات التقشف ويحتملوا أقصى حالات الصبر . وربما

---

(١) جوامع السيرة ص ١٠١، ١٠٢

(٢) بواط جبل من جبال جهينة بناحية رضوى . ورضوى جبال قرب ينبع وهي ذات مياه وأشجار — معجم البلدان في بواط ورضوى .  
(٣) العشيرة بلفظ التصغير من ناحية ينبع بين مكة والمدينة وكانت لبني مدلج — معجم البلدان في عشيرة .

كان الجهد المضني يغشى بعضهم بالنعاس إذا وجدوا بعض المأمن فألقوا بأنفسهم إلى النوم ، كما فعل عمار بن ياسر وعلى بن أبي طالب في هذه الغزوة : غزوة ذات العشرة إذ ألقيا بنفسيهما في دفعاء من تراب لين فناما حتى جاءهما رسول الله وقد تتربا في ذلك التراب . (١)

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من هذه الغزوة لم يبق إلا نحو من عشر ليال لا غير ، ثم بلغه أن كرز بن جابر القهري القرشي قد أغار على سرح للنبي بالمدينة في أطرافها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب كرز .

وقد حمل اللواء هذه المرة على بن أبي طالب ، ثم مضى الرسول حتى بلغ وادياً يقال له سفوان (٢) من ناحية بدر ، ففاته كرز ، فرجع رسول الله إلى المدينة دون أن يلقاه .

\* \* \*

من كل ذلك يتبين أن هذه السرايا كلها إنما كانت للتعرف على الطرقات والأماكن حول المدينة ولا سيما للمهاجرين الذين كانت هذه الأرض لهم أرض غربة أما أهل المدينة الأنصار فهم يعرفونها ، وكان أهم هذه الأماكن ما كان بين المدينة وبين البحر .

ثم كانت السرايا كذلك لموادعة القبائل الضاربة في هذه الأماكن والمشرقة على أفواهاها ودروبها ومياهاها ، وذلك ليؤمن القائد العظيم مدينته ويحميها من كل جهاتها .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٢) كان هذه التسمية من سفو التراب وثورانه .

ولم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم منعرجاً ولا صخرات ولا وادياً ولا ماء إلا سلكه وعرفه ليتم له تأمين المدينة ومعرفة أحوال الأعراب من حولها ، وليكون له منطلق أمين من المدينة إلى أى جهة شاء فيما بعد .

ويبدو كذلك من اختلاف الرواة في الترتيب لهذه السرايا كلها بما فيها سرايا رسول الله ذاته أنها كانت في أوقات متقاربة جد التقارب ، وربما كانت اثنتان منها في وقت واحد ، وذلك للإسراع في عملية التأمين حول المدينة .

فاذا كانت — على اختلاف أقوال الرواة — قد بدأت من الشهر السابع من السنة الأولى من الهجرة فقد انتهت في شعبان من السنة الثانية ، أى أنها لم تتجاوز اثني عشر شهراً .

كما يبدو أن الحمل كله في هذه السرايا قد وقع على كاهل المهاجرين أكثر من الأنصار ، بل كان معظم السرايا من خالصة المهاجرين وحدهم دون الأنصار . ثم كانت الألوية البيضاء إشارة إلى المسالمة ، وكانت المسئولية ملقاة على أقرب الناس من النبي ثم على أقرب أصحابه إليه ، وقد دارت فيها أسماء عبيدة ابن الحارث (١) وحزة وعلى وثلاثتهم من بيت عبدالمطلب ثم سعد بن أبي وقاص . وما من شك في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توخى أن يخفف عن أهل المدينة مشقة السرايا ، ولكنه اختار لها القلوب الجريئة والأكفاء من الرجال . ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ في سريره الأخيرة ماء بدر فسميت بدرأ الأولى أو بدرأ الصغرى ، ثم جعل منذ قدم إلى المدينة يستنخر عن بدر .

---

(١) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

ولقد جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في بعض قوله :  
« لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها . وأصابنا بها وعك ،  
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخبر عن بدر (١) .  
فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرى - يا ترى - أنها أرض  
الإنذار والوعيد؟

---

(١) تاريخ الطبرى ص ٢ ص ٤٢٤ .





مُفْتَرَقُ الطَّرِيقِ





## مِفْتَاحُ الطَّرِيقِ

كان رجب شهراً محرماً في الجاهلية ، أى كان يحرم عليهم فيه الشغب والقتال ، ثم ظل رجب شهراً من الأشهر الحرم في الإسلام .

وحيث كاد هذا الشهر ينتهى وبهل شعبان من السنة الثانية من الهجرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث أبا عبيدة عامر بن الجراح في بعث ، ثم رأى أن يستبدله بعبد الله بن جحش ، وذلك لأن أبا عبيدة كان ممن أغرم بملازمة رسول الله في حله وترحاله ، فلما أراد رسول الله أن يبعثه على سرية وأخذ ابن الجراح يستعد للأمر لكي ينطلق ملبياً بكى بكاء مراراً لفارقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أحس رسول الله منه هذا اللين ندب رجلاً آخر مكانه وولاه على السرية هو عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي .

وانبعث القائد الحديد ومعه ثمانية رجال كلهم من المهاجرين ، وليس فيهم من الأنصار أحد ، وهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعكاشة بن محصن وعتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص وعامر بن ربيعة وواقد بن عبد الله وهذا الأخير فيه خلاف .

وكان هؤلاء يمثلون على الترتيب قبائل ربيعة وأسد ومازن وزهرة وعذرة وتميم وليث وفهر ، وكانوا من أمثل أصحاب رسول الله طاعة وشجاعة .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً مقفلاً إلى عبد الله بن جحش قائد هذه السرية ورسم له طريق سيره : وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحداً من أصحابه — وهو أمر جرى عليه القادة الحكماء في كتمان الأمور ذات الشأن والخطر حتى لا تكشف لأحد قبل أوانها فيضمن لها كتمان سرها ونجاحها .

ومن اليسير أن ندرك أن الخطط التي يراد بها إدراك العدو يجب أن تحاط بأكثف الأسرار . ولم يزل هذا الأمر متبعاً في الدول الحديثة في كل أمر هام ، ولا يحرص عليه إلا القادة الحريص الحكيم .

ومضى قائد السرية بأصحابه ، ثم فتح الكتاب بعد مسيرة يومين في الاتجاه الذي أمر أن يسير فيه ، فلما فتح الكتاب وجد فيه :

« إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً — أو عيزاً لقريش — وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما قرأ عبد الله كتاب النبي قال : سمعاً وطاعة . ثم أخذ أصحابه بما فيه وأنه لا يستكره أحداً منهم كما أمره رسول الله ، وأما هو فنادى بالأمر ليرصد قريشاً ، ومن أحب منكم الشهادة ورغب فيها فليهب . ومن كره فليرجع .

فلم يكن من القوم جميعاً إلا أن قالوا له : كلنا نرغب فيها نرغب ، وما منا أحد إلا هو سامع مطيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ( ١ ) ، فهض عبد الله ونهضوا معه لما يقضى به الله لم يتردد أحد منهم ، فسلك بهم عبد الله حتى أتى مكاناً يقال له « بجران » ( ٢ )

(١) الدرر - ص ١٢٨ - الطبري ج ٢ ص ٤١١ .

(٢) بجران بضم الباء وفتحها مع سكن الحاء موضع بناحية الفرع والفرع بضمين على ثمانية برد من المدينة - معجم البلدان في بجران .

وحين بلغوا هذا المكان أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما ، كانا يتبادلان ركوبه ، ويبدو أنهما تركاه عند بعض شأنهما من غير أن يقيدها فشرد البعير ، فاضطر الرجلان أن يتخلفا عن السرية في طلب البعير وذهبا في أنحاء البادية يبحثان عنه ويرجعان به .

أما عبد الله ومعه بقية أصحابه فقد مضوا قاصدين إلى نخلة دون أن ينتظروا صاحبي البعير الذي ضل لينفذوا أمر رسول الله على الفور . وما أن ساروا في الطريق حتى رأوا غيراً لقريش .

وكانت هذه العير حافلة بما تحمل ، كانت تحمل زيبياً وأدما وتجاراً أخرى وعلى هذه العير رجل يقال عمرو بن الحضرمي وكان رجلاً من الصدف وهي بطن من حضرموت (١) ، ومعه أخوان من بني مخزوم هما عثمان بن عبد الله ابن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة ومعهما مولى لبني مخزوم اسمه الحكم بن كيسان .

ونزل هؤلاء وأولئك بنخلة ، فلما رأى أصحاب العير هؤلاء المسلمين هابوهم ورهبوهم حينما نزلوا قريباً منهم ، ثم برز من المسلمين عكاشة بن محصن حتى أشرف عليهم ليزوه من قريب .

وكان عكاشة قد حلق رأسه ليوهم أنه محرم يريد العمرة ، فظن أصحاب العير أن هؤلاء يطلبون العمرة ، فاستأمنوهم وذهب الرهب من نفوسهم .  
والتف المسلمون بعضهم على بعض يتشاورون :

هذا شهر رجب يكاد يهل ونحن في آخر جمادى الثانية ، ورجب غداً أو بعد غد وهو شهر حرام ، ونحن بين أمرين أحلاهما مر ، فإن قاتلناهم قرباً بدأ الشهر فأنهكنا حرمة ، وإن تركناهم الليلة استطاعوا أن يدخلوا الأرض الحرام فيصير الأمر علينا إثمًا مغلاً إذا تابعتهم ، فماذا نفعل ؟

وبعد مشاورة سريعة اتفقوا على أن يتشجعوا عليهم ويلقوهم ، ولم يكادا يلتقيان حتى بدأ بينهما القتال . وكانت في أصحاب العير غلظة فيه ، فأسرع واقد ابن عبد الله التميمي البربوعي أحد رجال المسلمين وكان حليفاً لعمر بن الخطاب - أسرع إلى سهم من قوسه ورمى به عمرو بن الحضرمي فخر عمرو صريعاً ، ثم هجم المسلمون على العير وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى أهله . أما نوفل أخو عثمان فقد استطاع أن يفلت فيمضي إلى مكة . وقبض المسلمون على العير .

حدث ذلك كله على مفترق الزمن بين الشهر الحرام والشهر الحلال ، في آخر يوم من جمادى الثانية وأول ليلة من رجب . وكانت ليلة شك عندهم فلم يتبينوا الحلال ، ولكنهم حين أيقنوا ثاني يوم أن رجب قد دخل أغمد المسلمون السيوف وظنوا بأنفسهم الظنون .

ثم حدث ذلك في خارج دائرة الحرم من الأرض إذ لم تكن العير قد دخلتها فكان ظن الخوف من انتهاكهم الزمان لا انتهاك المكان .

ثم ساق عبد الله بن جحش عيره التي قبض عليها ومعها الأسيران إلى المدينة . وقد رأى أن يفصل في الغنائم ويقسمها ، فأزمع أن يجعل لله ورسوله خمساً يقسمه رسول الله فيما يرى من مصالح المسلمين وفيمن يرى أن يعطيهم منه ، وأن يفرق أربعة الأخماس بين المحاربين معه . وكان هذا الرأي في التقسيم اجتهداً من عبد الله ابن جحش قبل أن يفرض الله خمس الغنائم لله ورسوله . فكأنما هداه الله . وأحصى عبد الله خمس الرسول وعزله في جانب ، ثم مضى بالبقية حتى تكون قسمتها بين من كانوا معه بالمدينة وعند رسول الله ، فلما قدموا على النبي بما فعلوا وبما حملوا أنكروا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلوه ، لأنه لم يأمرهم بقتال ولا أسر . وقد كان كتابه صريحاً في ترصد العير وتعلم الأخبار ، ثم هم قد وقع منهم ما وقع في الشهر الحرام ، فسقط في أيديهم مما أقدموا عليه .

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين وأبى أن يقسم الغنائم فيأخذ منها شيئاً أو يعطى لأحد شيئاً مما تأثم منه فلم يأمر به ، لأنه لم يؤمر بعد من الله بأن يقاتل ، ولأنه قد وقع في مستهل الشهر الحرام .  
وعلم أهل المدينة بما فعل هؤلاء وما قابلهم الرسول به فجعوا يسيئون لقاء عبد الله بن جحش وأصحابه ، وظنوا جميعاً أنهم قد هلكوا حين صنعوا ما لم يؤمروا به من رسول الله .

أما اللذان أضلا بعيرهما من المسلمين وهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فقد أوغلا في البادية عند نخلة وراء البعير يبحثان عنه ، فعثرت بهما قريش فمادتهما إلى مكة أسيرين ، وعلم رسول الله بخبرهما فانتظر أمر الله فيهما .

\* \* \*

ربما كان كل ذلك قد حدث في دائرة ضيقة ، وربما كان خطأ من عبد الله ابن جحش وأصحابه يرجعون عنه ويفك الأسيران وترد العير وأحمالها على قريش ولكن قريشاً اتخذتها فرصة للتشهير ولشن دعاية عريضة في أنحاء الجزيرة كلها ، تتهم رسول الله والمسلمين بأنهم استحلوا حرمة الشهر انتهكوا الحرمات ، فسفكوا الدماء وانتهبوا الأموال .

وطرب اليهود إذ رأوا الفرصة قد سنحت للدس والوقية ، فبدءوا يشعلون نار الفتنة ليزداد لهيبها اشتعالا ، وقلق العرب من الدعاية التي تقوم بها قريش والدس الذي يفعله اليهود .

ولم يكن بد من أن يتطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المضيق الذي انحصر فيه المسلمون — لم يكن بد من أن يتطلع إلى السماء ليرى مخرجاً مما وقعوا فيه .

ورحم الله رسوله وعباده إذ كثر الأعداء وأسفرت الفتنة وعمت ، وأفحش اليهود والمشركون فأنزل الله على رسوله ما يخرج المسلمين من أزمهم دون أن

يوسموا بالعدوان أو انتهاك الحرام فقال سبحانه : « يستلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافراً أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١) . ونصبت بهذه الآية كفتنا ميزان رجحت فيه كفة الآثام التي ارتكبتها قريش ، فهي قد صدت عن سبيل الله وكفرت به ولم ترع حرمة البلد الحرام فأخرجت منه أهله وقطعت ما بين ذوى الرحم من الصلات واستولت على ديارهم وأموالهم وقتلت من قبل من استطاعت منهم وشردت من شردت ، ثم هي تنعى على المسلمين أن قتلوا رجلاً منهم وأسروا رجلين : حرّاً ومولى ، وقبضوا بعض الأموال ، ثم هم لم يقسموها ، وربما كان عليهم أن يردوها كما هي لم ينقص منها شيء لو أراد رسول الله . وقد وقع من المسلمين ما وقع في ليلة فيها شك في إهلال الشهر الحرام .

ولو تعادلت الأضرار الدنيوية التي ارتكبتها كل منهم ضد الآخر — وهي لا تتعادل أبداً — فإن هناك ضرراً دينياً بالغاً انفردت به قريش ، إذ كل همها أن تفتن الناس عن دينهم وترد رسول الله عن دعوته ، بينما لم يفعل المسلمون شيئاً سوى أن أرادوا هداية الناس وجمعهم على وحدانية الله .

وفي بقية الآية ما يهول النفوس :

إذ هي توازن بين الفتنة والقتل ، أى بين ما يعم الناس من الخراب واضطراب النظام وسوء العاقبة وبين أن يقتل واحد منهم صواباً أو خطأ ، فقول الله سبحانه « والفتنة أكبر من القتل » حكم قاطع تحكم به كل العقول وتقره ، وتنزل عليه كل أنظمة الناس .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

وقد بدأت قریش بالفتنة وهى لم تزل ماضية فيها ، ولا هم لها إلا أن توقع بأهل التوحيد مهما استطاعت ، ثم هى بدأت بقتل بعض المستضعفين منهم من قبل ولم يكونوا قد تعرضوا لأحد من المشركين فى ذات نفسه أو ذات ماله .

وكشفت الآية للنبي والمسلمين ما تنطوى عليه نيات الكفار إذ قال الله فيها « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » أى أن قریشاً والمشركين واليهود وكل ضالع معهم من الأعراب والمنافقين سوف لا يمتنعون عن قتالكم لردكم عن الدين حتى ولو لم تقاتلوهم ، فلم يعد بعد من سبيل إلى المهادنة والسلام .

وما أن نزل هذا الأمر من الله حتى أمر النبي من فوره باقتسام الغنائم ، وأمضى لعبد الله بن جحش ما رأى من الخمس لله ورسوله ، ثم حبس رسول الله الأسيرين عنده .

وأهم من ذلك كله أنه قد انفك عن الأشهر الحرم قيدها الجاهلى ، ذلك القيد الذى كانت قریش تريد أن تقيد به الرسول والمسلمين وحدهم دون أن تنقيد هى بحرمة زمان أو مكان .

وأقرت غنيمة الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى » (١) فأقر الله ورسوله فعل عبد الله بن جحش ورأيه وما هداه الله إليه فى الغنائم وقسمتها ، ثم صار سنة للأمة فى غنائمها من الحروب .

وقد تبين حينئذ صدق الحطة التى اتبعها الرسول ، فان قریشاً اضطرت أن تبعث إلى النبي فى المدينة تطلب إليه فك أسيرها وأن تدفع له ما شاء من الفداء .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١

وقد رأى رسول الله أن لا يفاديها حتى يقدم صاحباه من أسر قريش :  
سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، وأن يصل هذان إلى المدينة قبل إطلاق  
سراح أسرى مكة ، وقد خشي رسول الله أن يكونوا قد قتلوهما أو بيتوا  
قتلهما ، فهددهم بقتل أسيريه إن أقدمت قريش على قتل سعد وصاحبه ،  
فكان أن خضعت قريش ، وقدم سعد وعتبة إلى المدينة ففاداهما رسول الله .

وإذ قدم المسلمان الأسيران إلى المدينة أطلق النبي سراح المكين ، ولكنهما  
افترقا ، فأسرع كل منهما إلى ناحية تخالف الآخر ، فأسرع عثمان بن عبد الله  
ابن المغيرة إلى الكفر وإلى مكة فظل بها على كفره حتى مات ، وأما مولاهم  
الحكم بن كيسان فانه أسلم وأقام بالمدينة فدل بما فعل على أنه كان عاقلا حكيما  
وحرّاً سيداً ، ثم انتظم في سلك مجاهدى الإسلام ، وظل يحضر المواقع ويبلى  
فيها بلاء حسناً حتى مات شهيداً من بعد ، مات يوم بئر معونة (١) .

ولقد رفع الله الحكم بن كيسان من الخسيصة حين أسلم وجاهد في صفوف  
المسلمين ، وكان الذى أسره في تلك السرية المقداد بن عمرو (٢) ، وقد  
أراد عمر أن يقتله ولكنه نجا من القتل حين أسلم عند رسول الله ، وقد تزوج  
في الإسلام آمنة بنت عفان أخت عثمان بن عفان (٣) .

ومن الواضح البين أن هذه السرية : سرية عبد الله بن جحش كانت  
مفترق الطريق ، فعلى رغم أنها كانت من عدد ضئيل لا يقصد الحرب  
ولا يستطيع أن يشب لها نارا أو يسعر لها أوارا ، ثم لا يستطيع إن هو أشعلها

---

(١) بئر معونة هي في طريق المصعد من المدينة الى مكة . وكانت لبنى  
سليم - معجم البلدان في بئر .  
(٢) الاصابة ج١ ص ٣٤٦ .  
(٣) المرجع نفسه ص ٣٤٧ .



أن يستمر فيها أو يصبر عليها ، فإنها صارت نقطة تحول في سياسة الإسلام ، إذ شرع للمسلمين أن يقاتلوا الذين فتنوهم عن دينهم . وذلك التشريع كان أول أمر بالجهاد في سبيل الله .

ثم لم يكن مفترق طريق للمسلمين وأهل المدينة وحدهم ، ولكنه كان أيضاً بالنسبة لقريش ، فقد بدأت مكة تعد للبأس والقوة وتجمع للعبوات المسافرة إلى الشام أموالاً كثيرة من شتى بيوت أهل مكة ، وتجعل عليها أعداداً كبيرة من الرجال ذوى الحيلة والدربة وتزودهم بالمعرفة والحذر والسلاح .





القافلة الكبرى



## القافلة الكبرى

أشرنا من قبل إلى أن قريشاً جعلت تتعرض لأهل المدينة في الاعتبار وزيارة البيت الحرام ، وانضح مما أشرنا إليه أن سعد بن معاذ حين اعتمر لم يستطع أن يطوف إلا إذا هداً الناس وبات بعيداً عنهم أن يعرفوه ، ومع أنه كان صديقاً لأمية بن خلف فان أمية لم يستطع أن يحميه إذا طاف على عيون الناس ، وكان أمية أحد الكبراء الذين أشعلوا هذا الخصام (١) .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سرية عبد الله بن جحش أن قريشاً جمعت أموالها للتجارة ، فلم يبق أحد من أهل مكة إلا وقد اشترك فيها على قدر ما يطيعه ، حتى قدروا ما جمعت قريش بعشرات كثيرة من ألوف الدنانير ، ولم يتخلف عنها والاشترك في تجارتها ورجالها بطون كعب بن لؤى كلها (٢) وهم من تتألف منهم قريش مكة جميعاً .

ثم حملت هذه التجارة على غير تتألف من ألف بغير ، وجعلت قريش عليها أبا سفيان بن حرب بن أمية الحذر الداهية وتحتته من الحراس على العير ثلاثون أو أربعون من أشداء الرجال فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ، أما عمرو فعروف الدهاء وأما مخرمة فكان حديدا سليط اللسان .

(١) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٢٢ .

ولقد كان في الإمكان أن تلتقى سرية الرسول التي خرج فيها إلى العشيرة بهذه القافلة فتعترض طريقها وهي مصعدة إلى الشام ، ولكن القدر لم يشأ أن يلتقيا ، فسبقت غير أبي سفيان سرية الرسول من المكان الذي ربما كانا يلتقيان فيه على طريق التجارة بيومين اثنين ، وبذلك أمكن لأبي سفيان أن يبلغ الشام بتجارته دون أن يلقي النبي أو يفطن أنه سيلبغ المكان الذي مر به بعد يومين .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد علم بمرور أبي سفيان فنوى أن يعترضه في أثناء عودته ، ولعل ذلك أفضل ، لأن العير ستعود — لا محالة — محملة بالنفائس والتجارة والأموال من الشام ، وهو أمر كان قد تعلمه الرسول منذ كان في صغره مرتحلاً مع عمه أبي طالب ومسافراً من بعد ذلك بمال خديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة ، وكما عرف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث .

وكان الزمن المقدر لذهاب أبي سفيان إلى الشام وعودته منها حتى يمر ببدر في رجوعه نحواً من ثلاثة أشهر ، حسب فيها — بدقة عظيمة — تقدير التجارة والأسواق ومدة الارتحال ، ثم كان تقديراً صادقاً إذ لم يخالف حساب النبي في شيء .

ولعله لا يكون من النافلة أن نضرب هنا مثلاً بدقة تقديرات الرسول لشيء الأشياء وامتيازها على كل من معه من الرجال ، فقد أورد البخاري في باب الزكاة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك مر بوادي القرى فاذا امرأة في حديقة لها وبها نخل كثير فقال لأصحابه : احرصوا — أي قدروا كم تثمر هذه الحديقة — فحرص أصحابه وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق .

ثم عاد الرسول وأصحابه من تبوك ، وإذا النخل قد أثمر ، وجمعت المرأة حبه وتمره ، فسألها رسول الله قائلًا : كم جاء حديقتك ؟ قالت : عشرة أوسق . هكذا تمامًا بقدر ما خرص وقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

ونعود من هذا المثل إلى ما نحن بسبيله فنقول :

حين تحين النبي رجوع أبي سفيان من الشام رأى أن يحبس الطريق فبعث برجلين ليتحسسا الطريق هما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد .

ومضى الرجلان حتى نزلا بنحاء لرجل يقال له « كشد » (٢) من جهينة قد نصب نخباء في الروحاء على نحو ثلاثين ميلا من المدينة ، فأقاما عند هذا الجهني حتى لاحت العير لهما وأيقنا بمجيئها .

وسرعان ما نهضا إلى بعيريهما وارتحلاهما إلى المدينة ليفضيا بما علماه لرسول الله ، ولكنهما حين بلغا المدينة كان رسول الله قد خرج منها ، لأنه كان قد قدر أن تكون العير قد بلغت الروحاء وخشى أن تكون قد فاتت الرجلين فخرج دون أن ينتظر ما يحيثان به .

وإذ قدر رسول الله هذا التقدير نادب المسلمين إلى الخروج لاعتراض العير ، وأمر من كان بعيره أو فرسه حاضراً أن يخرج معه ، فطلب إليه قوم ممن كانوا يسكنون عوالي المدينة - وأغلبهم من الخزرج - أن يذهبوا فيحضرُوا رواحلهم ليخرجوا معه ، فلم يرض رسول الله أن ينتظر ، لأنه لم يكن محتفلاً بالحشد والجمع والكثرة وإعداد القوة إذ هو لا يريد غير العير ، وهي لا قوة لها ولا شوكة ، وهو لم يبيت نية على قتال . وكانت دعوته المسلمين حين ذلك

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) صار كشد من الصحابة حين أسلم وأورده صاحب الإصابة ( بالسبين بدل الشين ) وذكر انه كسد بن مالك - الإصابة ج ٣ ص ٢٧٧ .

للخروج بقوله لهم « هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله  
بنفلها» (١)

وشعر أبو سفيان حين اقترب من الروحاء ، أن عيوناً ترصده ، فاستأجر  
ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة يستصرخ أهلها إلى مناصرة العير حتى  
ينجو ، فنهض ضمضم إلى مكة . فلما كان بيطنها هتف بأهلها واستنفرهم  
وجعل كلما أوغل فيها هتف واستصرخ ، حتى بلغ مكان البيت ، فخرج  
أكثر الناس وتقدم الأشراف ثم تجهزوا جميعاً للخروج لم يتخلف منهم إلا القليل ،  
على شرط أن يبعث معهم بمن يكون في مكانه ، فكان ممن تخلفوا ببدل خرج  
عنهم أبو لهب بن عبد المطلب .

وأما أصحاب النبي فقد خف بعضهم لندائه وثقل بعضهم ، وطمع جماعة  
من لم يسلموا وبقوا على شركهم أن ينتظموا في سلك المسلمين رغبة في الغنائم  
فأبى رسول الله عليهم أن ينضموا إليه إلا إذا نزعوا عنهم الشرك وآمنوا بالله  
ورسوله ، وبذلك لم يخرج معه إلا كل مؤمن مبايع خالص المبايعة والإيمان .

ثم استيقن أبو سفيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان قد خرج في بعض  
الناس لاعتراضه وهو مصعد إلى الشام فلم يكتف بارسال ضمضم الغفاري إلى  
مكة فجعل يغذ السير حذراً حتى يسعفه أهل مكة بالأمداد التي يريدونها لتم  
له النجاة .

وجعل هذا الرجل الحذر الحريص يسأل كل من يمر به في الروحاء عما  
رأى ويتنسم الأخبار حتى سأل كشدا الجهني ذاته ، ذلك الذي نزل في خبائه  
مبعوثا النبي ثم تركاه وركبا إلى المدينة قبيل أن تهل أوائل العير وسوابقها في  
الطريق فزاد حذره وعدل عن الطريق .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٨٥ - سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٩٣ .



وبلغ ضمضم الغفارى مكة ثم أبلغها الخبر — بطريقة نعب عنها نحن فى زماننا بأنها طريقة (مسرحية) أثارت ثأرتهم وألهمت مشاعرهم — فما كاد يصل إلى بطن مكة حتى قطع أذن بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف عليه وقد شد قميصه من قبل ومن دبر ، وجعل يصيح ويقول :

يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة — أى المال والتجارة — أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، ولا أرى أن تدركوها ، فالغوث الغوث ! وانتهز أبو جهل عدو الإسلام الألد هذه الفرصة ، وخيل إليه أن الوقت قد حان للقضاء على محمد ودعوته ، وقد هياؤا لها عند العرب فى الجزيرة كلها بانتهاك الشهر الحرام ، فضى أبو جهل يصيح عند الكعبة فى جموع قريش حتى يخرجوا لإنقاذ الأموال .

غير أن طائفة من أهل مكة كانت بينهم وبين قبائل كنانة التى تسكن فى الطريق عداوات وثورات فخشوا إن هم خرجوا أن يلقوا أعداءهم فلا يلحقوا بأبى سفيان ، وكادت هذه الحشية تقعدهم عن الخروج لولا أن تقدم إليهم فجأة مالك بن جعشم أحد أشراف كنانة وكان حاضراً نداء أبى جهل على النفير فأمن قريشاً وعهد إليها أن كنانة لن تعترض أحداً ولن تلقى قريشاً فى حرب إذا حدث أن اشتبكت مع محمد فيها .

وقويت حين ذلك كفة الداعين للخروج ، ونفخ ذلك فى غرور الناس فلم يبق قادر على الخروج إلا طرح عذره فى التخلف أو أرسل مكانه رجلاً حراً أو مولى .

وكان من الذين تخلفوا أبو لهب ، فقد أرسل مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة وفاء لدين كان على العاصى لأبى لهب قدره أربعة آلاف درهم ، كان العاصى قد أعلن إفلاسه عنها ، فاستأجره أبو لهب — وهو مفلس — ظلاماً وتجبراً .

وقرر أمية بن خلف العدو الألد الآخر أن يقعد عن الخروج ويبقى في مكة لأنه كان قد ثقل وكبرت سنه ، ففضى إليه أبو جهل وعقبة بن أبي معيط وهما أمثاله في السن والثقل يسخران به وينالان منه ويتهما بالجن ، فلم ير بداً من الخروج .

وهكذا خرج المشركون من مكة في اليوم الثامن والعشرين من شعبان في السنة الثانية من الهجرة في ألف رجل تقريباً ، وخرجوا جميعاً ركباناً على نحو من مائة فرس وسبعمئة بعير ، وهم يستعرون بنار الحقد ويندفعون وراء شياطين الغدر والانتقام .

ولا بد لنا هنا من أن نتأمل موقف جميع الأطراف في هذا الوقت من أوائل رمضان من هذه السنة ليتضح لنا الموقف وينجلي بأوضح صورة :

فإننا نجد قافلة أبي سفيان الضخمة تغد السير في طريق القوافل منحدره من الشام ، ولم يبق أمامها سوى بضعة أميال للوصول إلى بدر حيث منطقة الآبار والنخيل والظلال ، وهى المنطقة التى صارت فيئاً للقوافل تقف عندها للإرواء والسقى والراحة من متاعب السفر ووعثائه ، وعلى هذه القافلة رجل حذر قد أقلقه الخوف على غيره وأموال أهله فهو دائم التجسس والتسآل .

ولعل قائد العير قد اطمأن بعض الاطمئنان حين عن له أن يبعث بضمضم الغفارى إلى مكة ، ثم زاد اطمئنانه حين راوحوه الأمل في أن تلحق به الأمداد ، وكان ذلك كله حقائق واقعة إذ كان ضمضم قد بلغ مكة واستنفرها فنشرت كلها في جيش لحب صاخب منذ أيام يسرع على طريق القوافل المصعد إلى الشال .

حقاً ، إن أبا سفيان لم يكن بالغ الاطمئنان على أن أهل مكة سيدركونه ، كما لم يكن يدرى على وجه اليقين شيئاً عن المكان الذى سيلتقى فيه بهم ، إلا أنه قد احتاط لأمره وأفرغ كل حيله ما أمكنته الحيلة ووسعه الاحتياط .

وجد أشراف مكة وزعمائها في السير بالناس أملاً في إنقاذ القافلة قبل أن تقع في قبضة محمد وأصحابه ، وساروا إلى الشمال مسرعين ، وكأنما هم مسوقون بهراوة مجنون .

تلك حال القافلة وحال أهل مكة والجيش الذي بعثوه في الطريق . أما الموقف في مدينة الرسول فقد أسرع المسلمون الذين حضرت رواحهم أو لم تحضر دون تأهب أو استعداد استجابة لنداء رسول الله لهم بأن يخرج على الفور من كان حاضر الرحل ، ولم يمض غير وقت قصير من ساعات النهار حتى كانوا قد أخذوا في السير على فم الطريق : طريق القوافل بين مكة والشام .

على أنهم هم الآخرون لم يكونوا يدرون تماماً مكان لقائهم مع القافلة ، كما لم يدر في خلدكم أن مكة كلها قد نفرت في جيش صاحب جزار يقصد نفس المكان الذي يقصدون إليه .

وهكذا أصبح الموقف يتلخص بغاية الاختصار : من قافلة تجارية تحتال في الروغان إلى مكة ، وفتتان أخريان غير متكافئتين ، لأن مكة تسير في جيش ، والمسلمون يسرون في طائفة أغلبها يسير على الأقدام ، وهما معا يتجهان إلى طريق القافلة بقوة وسرعة ، والقادمون من الشرق قادمون لاقتناصها ، والزاحفون من الجنوب يسرعون لإنقاذها وحمايتها .

ولم يكن في ظن أحد أن يلتقي الطرفان دون القافلة ، ويصبح المسلمون وهم على تلك الحال التي خرجوا فيها على اضطرار لقتال جيش صاحب من الأعداء — وقد زود بكل ما تحتاج إليه الجيوش حين ذلك من مؤونة وسلاح — وأن يكون هذا اللقاء على غير ميعاد ، ولكن الله كان قد قدر ذلك وهياً له ، وكما قال سبحانه :

« ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً » (١) .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٢ .



# تَقْدِيرُ الْمَوْقِفِ

خرج النبي عليه الصلاة والسلام في أصحابه من المدينة في اليوم الثامن من رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، واستعمل عليها أبا لبابة بعد أن رده ممن كانوا قد ساروا معه ، وردده من الروحاء ، ثم جعل معه عمرو بن أم مكتوم العامري ليصلي بالناس .

ويقال إن اسم أبي لبابة بشير بن عبد المنذر الأنصاري وله قصة مشهورة في غزوة تبوك ، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره على المدينة حين رده من الروحاء إليها هو وآخر معه اسمه الحارث بن حاطب فان رسول الله احتسبه مع من خرجوا معه في بدر فصار بدرياً (١) .

وخرج رسول الله وابنته رقية مريضة قد ثقل عليها المرض ، وكانت عند عثمان بن عفان ، فترك النبي زوجها عندها ليمرضها ويرعاها من حيث يحسبه في جملة الخارجين معه للقاء العير .

ودفع رسول الله اللواء العام إلى مصعب بن عمير ثم دفع الرايتين : راية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ ، وكانت الرايتان هذه المرة سوداوين — وكأنا تبدل الأمر وتغير إذ كانت الرايات في

---

(١) الاصابة ج ٤ ص ١٩٧ — الاستيعاب ج ٤ ص ١٩٧ .

السرايا السابقة بيضاء — ثم جعل على المؤخرة قيس بن أبي صعصعة أخا بني  
مازن بن النجار (١)

وبلغت عدة الناس جميعاً من المهاجرين والأنصار نيفاً وثلاثمائة ، منهم  
ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس وبقية الناس من الخزرج  
وعدهم مائة وسبعون .

ومن هؤلاء الذين خرجوا غلمان لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم  
إلا بشهور قليلة أو أيام ، منهم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص ،  
وكان عمير هذا صغيراً قصيراً وقد استشهد في الوقعة وكان سعد أخوه يصفه إبان  
الوقعة فيقول : لقد عقدت حمائل سيفه وإنما لتقصّر . وذلك لصغره (٢) .  
كما أن حارثة بن سراقة وهو غلام آخر حدث جاءه في الوقعة سهم خاطيء  
لم يعرف راميه فاستشهد (٣) .

ويقول ابن القيم :

ولنما قل عدد الأوس عن الخزرج وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة  
وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت في عوالى المدينة ، وجاء النفير بغتة ،  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرا —  
فرسه أو بعيره — » فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في عوالى المدينة أن يستأنى بهم  
حتى يذهبوا إلى ظهورهم فأبى ، ولم يكن عزمهم اللقاء ، ولا أعدوا له عدة  
ولا تأهبوا له أهبة (٤) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٣٣ .

(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٨٨

(٣) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٢٤ .

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٠ .

ثم عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه حين برز من المدينة فاستصغر عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد ومولاه ورافع بن خديج والبراء ، ابن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وغيرهم فلم يجزهم (١) . وإنما ذكرنا هذه الأسماء وكانت الإشارة تكفي ليكون الدليل قاطعاً بذكر الأسماء على أن الصبيان الذين كانوا أسلموا قد عرفوا ما أوجبه عليهم دينهم فلم يتخلفوا عن أشد المواقف حرجاً في نصرة رسول الله .

ثم خرج النبي وأصحابه ومعهم سبعون راحلة ، فكان الاثنان والثلاثة والأربعة يتبادلون في الركوب بغيراً واحداً ، وكان النبي نفسه يعتقب بغيره ويتبادل ركوبه مع علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد ، وربما فضل النبي صاحبيه عليه في الركوب ، وهما يدعوانه ليركب في نوبتهما فيرفض دعوتهما .

ولم يكن معهم سوى فرسين اثنتين : فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد ابن عمرو البهراني ، وقيل بل الثانية كانت لمرثد بن أبي مرثد الغنوي (٢) ، فسار الزبير بن العوام على فرسه على الميمنة ، والمقداد أو مرثد على فرسه على الميسرة ، وكان الزبير - وهو فارس القوم - لم يبلغ سوى سبعة عشر عاماً (٣) ثم لم يكن معهم من الدروع سوى ست أدرع ومن السيوف سوى ثمانية (٤) .

وانطلق القوم على هذه الصورة نحو طريق القوافل خشية أن يفلت منهم غير أبي سفيان هذه المرة وهو عائد كما أفلت المرة السابقة وهو صاعد ، ثم

(١) أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٩ .

(٤) تفسير الجلالين سورة آل عمران في قوله تعالى ( قد كان لكم آية في فتنتين التقتا ) الآية ٣ .

بلغوا على عجل - نسبي - وادياً يقال له ذفران ، وإذا وجه الأمر قد تغير ، فقد جاءهم الخبر اليقين بأن قريشاً قد خرجت كلها من مكة لتلقى غيرها ، ولم يكونوا قد سمعوا بذلك قبل خروجهم من المدينة (١) .

وإذن فلن يكون هؤلاء المسلمون الثلاثة أمام أبي سفيان وغيره والثلاثين رجلاً أو الأربعين الذين يحرسونها والذين لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه ، بل هذه مكة كلها قد خرجت وعلى رأسها أشراف قريش وقد دفعهم الحرص جميعاً للدفاع عن أموالهم ، فان كل بيت في مكة له مال فيها .

وكأى قائد عسكري كان من واجب الرسول عليه الصلاة والسلام تقدير موقفه العسكري للوصول إلى الخطة التي سيسلكها جيشه لمواجهة هذا الموقف العصيب والذي قل أن واجهه جيش في التاريخ .

وإذا أتيج لنا أن نقدر هذا الموقف العسكري تقديرًا صائبًا - على ضوء النظريات الحربية الحديثة وطبقاً لأحدث مفاهيم الفن العسكري - فان نتيجة تقديرنا الحديث لن تختلف عن النتيجة التي توصل إليها الرسول عليه الصلاة والسلام وهو رابض بجيشه الصغير في وادي ذفران منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .

وعند تقدير هذا الموقف - بل وكل موقف متشابه - ينبغي البدء بذكر الغرض ، فنجد أنه الاستيلاء على قافلة أبي سفيان . فان انتقلنا بعدئذ إلى العوامل التي تؤثر في تحقيق الغرض وأوردنا مناقشتها بترتيب أهميتها فوف نبدأ دون شك بمقارنة القوتين المتضادتين .

ولا يمكن في مثل هذا المقام أن نقارن بين قوة المسلمين والقوة التي تحرّس القافلة وحسب ، بل لقد طرأ على الموقف عامل جديد قلب ميزان القوى رأساً

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٢٢



على عقب ، وهو تدخل جيش المشركين في الموقف ، وبهذا التدخل أضحى من الحتم أن تجرى المقارنة بين جيش المسلمين وجيوش قريش .

وكم تكون المقارنة فريدة في نوعها حين نقيس جيش المسلمين في عدد رجاله بجيش المشركين ، فترى الثاني يبلغ أكثر من ثلاثة أمثال الأول ، مع أن الأول فيه كثير ممن بلغوا الحلم منذ شهور قليلة ، ولقد رد رسول الله بعضهم ممن لم يبلغوا الحلم كما قدمنا من قبل (١) .

وإذا قدرنا أن أمام جيش المشركين خمسة عشر يوماً بالسير العنيف يلتقى بعدها بجيش المدينة وأن أمام جيش المدينة أسبوعاً كاملاً حتى يبلغ مكان الالتقاء ، كان علينا أيضاً أن نقيس المسافة بين مكة وبدر وبين المدينة وبدر ، وإذا قدرنا أن الأولى أربعة أمثال الثانية تقريباً فأننا ندرك في يسر وسهولة ، أن قوة جيش مكة في السير كانت أربعة أميال تقريباً إلى ميل واحد يقطعه جيش المدينة لأن أولئك من الركبان وهؤلاء من المشاة .

ولو انتقلنا إلى مقارنة السلاح الحاسم في المعارك حينئذ وهو سلاح الفرسان لأذهلتنا نتيجة المقارنة بين فارسين اثنين مسلمين ، وبين مائة من فرسان المشركين على خيل عددها مائة ، وقد سلح الجيش كله بالدروع والسيوف والنبال وكل أدوات الفرسان .

وإذن فقد عرفنا — منذ الآن — نتيجة المقارنة ، وبأن أن نسبة الفوز والغلبة ستكون كنسبة نقطة واحدة للمسلمين إلى خمسين نقطة أو أكثر للمشركين . فإذا ذكرنا سلاح التنقلات السريعة وخفة الحركة ، وكان حينئذ معتمداً على الإبل وجدنا أننا سنقارن ونقيس بين سبعين بعيزا لدى المسلمين وسبعمائة بعير لدى المشركين . ونتيجة ذلك أيضاً يكون منها نقطة واحدة لصالح المسلمين إلى عشر نقط للمشركين .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٧٧ .

فاذا مضينا في مقيارتنا هذه — وأظنها مقارنة فريدة في نوعها ولم يسبق إليها أحد من قبل — ثم انتقلنا إلى تسليح الجيش وجدنا أن تسليح رجال قریش أتم وأثقل بكثير من حيث النوع من تسليح المسلمين ، مع غرض النظر عن تفوق المشركين في عدد الرجال .

وتكوين الجيشين أيضاً لا بد له من قياس ومقارنة :

فجيش المشركين يتألف من جماعة أهل مكة وعليهم أشرافهم ورؤسائهم وهم مشدودون بروابط النسب والعصبية القبلية القديمة ، وقد كان لأكثرهم دربة على القتال والمهارة فيه .

أما جيش المدينة فإنه يتألف من جماعتين من المهاجرين والأنصار وفيهم عدد من الذين كانوا يستضعفون في مكة ، ولا بد أن تكون في قلوبهم بقية من الرعب ممن كانوا يعدونهم لو رأوا أنفسهم أمامهم في قتال ، ثم إن فيهم عدداً آخر من الذين لم يشبوا عن الصبا إلا قليلاً وهم مع قلة الدربة والمهارة حديثو عهد بالاسلام .

وحينما خرج المسلمون من المدينة لم يكن لهم من هدف سوى الاستيلاء على قافلة تجارية خيل إليهم أنها ضعيفة إذ لا يحرسها إلا نفر قليل من الرجال ، ومن السهل أن يتغلبوا عليها بعد مناوشات قصيرة ، مما لا يستدعي أن يتزودوا لها بغيز سلاح خفيف من السيوف والنبال .

أما جيش المشركين فقد خرج برجاله من القبائل وحلفائهم وهم أهل مكة جميعاً ، لأن العير — كما قلنا من قبل — كانت لبطون كعب بن لؤي كلها ، ولذا فقد نفر لها أهل مكة جميعاً (١) ، وقد تجهزوا بعد نداء ضم الغفاري وقالوا :

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٢٢ .

أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك .  
فكانوا بين رجلين : إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وقد أوعبت  
قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد .

وكذلك خرجوا في أتم أهبة وأقوى عدة وأمضى أسلحة ، إذ هم يعلمون  
أن استنقاذ قافلهم من محمد وأصحابه لن يكون إلا بعد نضال عنيف يشتبكون  
فيه مع عدد هائل وقوة ضاربة من أهل المدينة .

ومع هذا الحساب الذي حسبوه فقد بلغ بهم الفخر والبطر مبلغاً كبيراً ،  
إذ عرض عليهم رجل من أشراف البادية وعظمائها يقال له « خفاف الغفاري »  
أن يمددهم بالسلاح والرجال ليزيد جيشهم عدداً وقوة ، وأن يكون هذا المدد  
بقيادة ابنه ، وكان الابن مغواراً شجاعاً ، فأرسلوا إليه يشكرون له هذه النخوة  
ويقولون له :

لقد قضيت الذي عليك ، ولئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف  
عنهم ، ولئن كنا نقاتل الله — كما يزعم محمد — فما لأحد بالله من طاقة (١) .  
وهكذا سنرت قريش وقدرت في نفسها — معزة بقوتها التي رأتها كافية —  
أنها تهاجم بها المدينة ذاتها لو قدر ل محمد وأصحابه أن يسبقوها إلى العير ويستولوا  
عليها ، ولا بد على كل حال من استنقاذ الأموال قسراً ، حتى ولو كان محمد  
وأصحابه قد قبضوا عايبها ودخلوا المدينة بها .

وربما كان هذا التقدير تقديراً بشرياً صحيحاً ، ولعله يصور أيضاً أن المعركة  
لو نشبت بين الفريقين فإنها ستكون أشد ضراوة وفتكاً منها لو استخلصت العير  
قبل القتال .

\* \* \*

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٤١ .

غير أن ثمة عاملاً آخر هاماً يجدر بنا أن نضيفه إلى قائمة العوامل ، وهو الروح المعنوى لدى الفريقين . ولا يحسن أحد أنه عامل ثانوى لا أهمية له ، بل إنه ربما أصبح فى كل معركة حربية وغيـر حربية — أقوى العوامل على الانتصار فيها أو الصبر عليها .

وشتان بين ما نجد من الفروق بين المسلمين الذين خرجوا للجهاد فى سبيل الله والدفاع عن دينه والوقوف فى وجه المعتدين عليهما ، وهم إذا اشتبكوا فى القتال فانهم سيحاربون عن إيمان بأنهم الفائزون — لا محالة — بخيرى الدنيا والآخرة ، فاذا قدر لهم النصر فقد فازوا بالغنيمة ، وإذا لم يقدر لهم إلا الموت فقد فازوا بالمطلب الأول والنصيب الأوفى .

نعم ، شتان بين هؤلاء وبين الأعداء ، وهم خليط من المشركين والمرغمين على القتال والسير ، وسيحارب الأولون من أجل دنياهم ثم هم لا يتأدبون بأدب فى حرب ولا سلم ، ولا يتورعون عن أى بغي فى سبيل السيطرة التى يبغى رؤساؤهم أن يظلموا عليها وأن يمتد سلطانهم بها ، وهم حين يحاربون فى استنقاذ الأموال فانما يحاربون بنفوس تمتلىء حقدًا وفجوراً .

ففرق لا يهمه أن يعيش ، وهو إذا استشهد فخير له من أن يبقى ، ووراء فى المدينة من ينصر الله ودينه ونبيه أشد من نصرتهم له ، فهو إذا حارب فانه سيقبل على مظان الموت ويتحراها ، وفرق آخر يحرص فى جنون على حياته ويهيم باللذات الدنيوية التى يتعشقها ، ورؤساؤه أحرص منه على انتهاء المعركة على أكثر ما يكون من العجلة والسرعة كى يرجعوا إلى سلطانهم وملاهيهم .

وهنا ، ومن هذه النقطة وحدها ولا شىء غيـرها ، سترجع كفة جيش محمد بن عبد الله ، ولكن بعد أن يكون للقدر الرحيم يد معهم وذلك إذا قدرنا أنهم يعودون أحياء دون أن يستشهدوا جميعاً .

وربما كان من أحسن الأمثلة لحال من أحوال جيش محمد صلى الله عليه وسلم ما حدث عند خروجهم من المدينة بين سعد بن خيثمة وأبيه :  
 إذ قال خيثمة لابنه حين ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين للخروج  
 قال خيثمة لابنه : آثرني بالخروج وأقم مع نسائك ، فأبى سعد على أبيه وقال :  
 لو كان غير الجنة آثرتك بها .  
 فلم يرض خيثمة إلا أن يقترح بينه وبين ابنه سعد على الخروج فلما اقترعا  
 خرج سهم سعد فخرج دون أبيه ، فحزن هذا الأب حزناً شديداً وجعل يتمنى  
 أن يصيبه ما أصاب ابنه ، فأرضى الله الرجلين : الأب وابنه ، فاستشهد  
 سعد ببدر ثم استشهد أبوه في أحد من بعده (١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٩٣ .



## أَيْنَ الْحِلِّ

وبعد كل هذه الأقيسة والموازن التي قدمناها ، والعوامل التي استعرضناها ، ثم النظر إلى طرق الحل المفتوحة - كما في الاصطلاحات الحربية الحديثة - أمام جيش الرسول عليه الصلاة والسلام فاننا لانجد سوى حابين اثنين . وأحلاماً مرمرة .

فاما التقدم في اتجاه القافلة المنحدرة من الشام للاستيلاء عليها . وانتعرض في هذه الحالة للقاء ذلك الجيش الضخم الذي أرسلته قريش . ولما الانسحاب . ولقد كان من المحتمل الاستيلاء على القافلة بسهولة لو لم تدركها قريش بحمايلها ، أما الآن فلم يعد من اليسير الاستيلاء عليها ، بل ولا الاقتراب والدنو منها . ولكن ذلك لن يكون محققاً أكيداً إلا إذا قدر لقريش أن تلحق بها قبل محمد . أو - على الأقل - أن يلتقيا على طرفيها في زمان واحد .

ولو لحأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحل الثاني ، وهو الانسحاب - ولا بد أن يجرى بسرعة خاطفة إلى المدينة قبل أن تقطع عليه قريش خط الرجعة إليها ، ثم قد عرفت نسبة سرعة جيش مكة إلى سرعة جيش المدينة من قبل - لو لحأ الرسول إلى هذا الحل فانه زيادة على ضياع الفرصة وفوات الغرض الأصيل الذي كان الخروج من أجله ، فان قريشاً سوف تطمع في المسلمين بعد هذا المظهر المزرى من الضعف والخوف . ولا بد أن يغريها ذلك

بالزحف على المدينة للقضاء على محمد وأصحابه لمنع التهديد المستمر لتجاريتها الشامية والعراقية أيضاً ، والذي لا بد أن يستثنى لو تركت لهم فرص أخرى . وهناك - في داخل المدينة - فرصة مواتية ، إذ لو ظهر هذا الضعف بالانسحاب والانزواء لطمع أولئك اليهود المتربصون في المدينة مع معونة المنافقين منهم ومن غيرهم ، والذين كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يرموا المسلمين مع العرب عن قوس واحدة (١) .

أقول : لو ظهر ذلك من المسلمين لحان لهم أن يساعدوا قريشاً على التخلص من هؤلاء المهاجرين الغرباء الذين وفدوا على المدينة فغيروا وجوه الحياة فيها جميعاً .

وتحت حساب كل هذه الظروف والأحوال - التي نتعرض لدراستها من ناحيتنا البشرية - فان الرسول والمسلمين لم يترددوا في اختيار الحل الأول الذي تمليه ضرورة حرية باعتباره أفضل الحلين ، حتى لا يقع المسلمون بين شقي الرحى .

ولكن ، هل نستطيع أن نسميه - مع ذلك - حلاً انتحارياً ؟ وبالرغم من أننا لو سميناه كذلك فانه - مع ذلك - أفضل من الناحية العسكرية وأسلم من الانسحاب ، لأنه موقف ضرورة ، وطالما رأينا أمثاله في المواقع الضرورية الحربية في عصرنا برأ وبحراً .

ولن نجاوِ الحقيقة إذا سميناه انتحارياً . وقد جبرتهم الضرورة عليه . ولقد نزل أمر السماء بتعاليم المعركة لأهل بلدر المسلمين . وكان منها مانصه :

« ومن يولم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .



فوضعت تعاليم الآية الفرار من الزحف — لأول مرة — فى ضمن الكبائر . فلم يكن مباحاً لأحد منهم أن يتقهقر إلا منحازاً إلى عريش النبى ، أما بعده فلا . ويقولون إنها صارت تعاليم باقية للمسلمين إلى يوم القيامة حيث يجب أن ينحاز المتقهقرون إلى مكان إمامهم وقائدهم ، أما بعده فهو مستوجب غضب الله . والاستشهاد باقتحام مواقع الموت أولى (١) .

هذا ، ولو أخذت الأمور بالمقاييس العادية وبالمنطق المألوف فى مثل هذه الحالة لكانت الهزيمة على المسلمين أمراً محققاً لا جدال فيه ، طبقاً للمقارنات التى قدمناها فى الفصل السابق واستوعبنا فيها الكلام على العدد والسرعة والسلاح والتدريب .

وحتى لو قدرنا العامل المعنوى حق قدره ، وهو الروح المعنوى الذى هو أمضى أسلحة الحرب ، وسلمنا يقيناً بتفوق المسلمين على أعدائهم بهذا العامل ، فان حساب هذا التفوق لا يمكن أن يكون عفوا واعتباطاً ، بل لابد من حساب دقيق .

وحتى لو جعلنا دلائل آيات الله — جل شأنه — مقياسنا فى هذا الأمر ونسبة تقديره لآمنا بأن الطاقة المعنوية وهى فى ذروتها تمكن لواحد من المؤمنين أن يهزم عشرة من المشركين ، وذلك من قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » (٢) . لو جعلنا ذلك مقياساً لكان بلوغ هذه الطاقة أمراً عسيراً ، وهو لا يتيسر أبداً إلا للصفوة المختارة من المجاهدين فى حال ارتقاءهم قمة الروح ، وفى أحسن الظروف المادية أيضاً ، وهو أمر لا يبلغ إليه أحد من البشر إلا فى أحيان نادرة تشبه أن تكون لها معونة من المعجزات ، أو تكون هى نفسها المعجزات .

(١) الناسخ والمنسوخ ص ١٥٤ .

(٢) سورة الأنفال : ٦٥ .

وربما كان هؤلاء المسلمون المتأهبون لهذه المعركة قرب بدر في الصبر والعزم والقوة في مثل الرتبة الأولى لصفوة مختارة من المجاهدين — ولا شك في ذلك ولاسيما وهم حول النبي ذاته — ولكنهم لم يكونوا في الظروف المادية إلا في أسوأ الأحوال من حيث العدد والسلاح والدربة على القتال ، وحتى الاستعداد لخوض معركة تفرض عليهم مهما كان معهم من سلاح ، وهم لم يخرجوا من المدينة سراعاً بلا قوة إلا لاعتراض العير .

فلا بد إذن من أن نتحدد نسبة تفوقهم بسبب الروح المعنوي وحده بغير النسبة التي أوردتها الآية الكريمة ، وأن تكون في أفضل الأحوال إلى الضعف مثلاً ، ويبدو مع ذلك أن الضعف كثير .

أى أن كل رجل منهم يغلب رجلين ، وهى أيضا قوة خارقة ، ولاسيما إذا كان في الحساب أن محارباً من المشاة — وليس بيده غير سيف أو عصا — يغلب فارسين ، ليس له عدتها ولا قوتها ولا سلاحهما .

وقد تحددت هذه النسبة الحديدية — رحمة بالطاقة البشرية وتحذيراً لها من الاغترار — في قوله سبحانه وتعالى :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » (١) .  
وهذا الحساب فان قوى المسلمين المادية والمعنوية المحشودة معهم للتقدم إلى ساحة بدر قد قدر لها — بأقصى ما في الحساب البشرى — أن تهزم ستمائة من المشركين ، وهو تقدير جده كريم ، على بقاء الاحتمال الأول وهو أن هؤلاء الثلاثمائة الذى هم مع النبي يكون في قدرتهم أن يغلبوا ثلاثة آلاف ، لكن لا بد أن يكونوا كلهم من الحواريين .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٦ .

وبعد هذا كله ، فما هو موجز الأمر ؟

إنه جيش من المشركين يتكون من ألف مقاتل . وجيش من المسلمين يتكون من ثلثائة ، يقودهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهذا الجيش الإسلامي يتقدم إلى أول معركة يخوضها مع الشرك وجها لوجه : ويلتقي فيها النبي ذاته بأشراف مكة الذين خرجوا عن بكرة أبيهم للقائه .

ولو قدر للمسلمين أن يخسروا هذه المعركة الأولى لم تقم لهم قائمة من بعد . ولم يكن هذا تقديرنا ولا تقدير أحد من الناس غريب عن المعركة . ولكنه كان تقدير رسول الله ذاته وهو يلجأ إلى الله مبتهلاً في ساحة المعركة يقول :  
« اللهم أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن شئت لم تعبد » (١) .

~ \* ~

ومهما يكن الظن في نصر المؤمنين وهزيمة المشركين قد راود نفوس المسلمين :  
فان القوى المادية والمقاييس المألوفة لا يتسنى للعقل والمنطق أن يخالفا فيها وقائع التجارب وموازين الأشياء .

وإذن فلا بد من عامل آخر يحقق للمسلمين أن يظفروا ، وللإسلام أن يبقى .  
وكذلك دون أن يصاب المسلمون إلا بأذى قليل . يبقى بعده الرجال ليكروا ويقاتلوا ، وهو عامل لابد أن يكون من غير القوى البشرية ماديها ومعنويها .  
إذ هذه كلها قد عرف مداها .

أى أنه لابد أن تغشى المعركة قوى خفية من الملائكة — كما حدث — لتثبت هؤلاء وترعب أولئك ، وتخضع رقاب المشركين وجمجم رؤوسهم لمشافر السيوف ومصالت الآجال .

ولقد كان ذلك ، فأمد الله رسوله والمسلمين بجند من الملائكة غيرت وجه المعركة وأسلمت مناحر المشركين ورقابهم لحدائد المسلمين .

---

(١) صحيح البخارى : ٧٣/٥ .

ولقد صدق الله حين يقول :

« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (١) .

ولعل أمرا ذا بال — غير ما قدمناه كله — سيزيد المعركة حرجا أمام المسلمين ويكون معوقا لحريتهم في قتل من يلقون من الأعداء ، فقد قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديرا صادقا أنه ربما لقي الابن المسلم أباه المشرك في المعركة أو الأب المسلم ابنه المشرك ، وكذلك ربما لقي الأخ أخاه والصديق صديقه ، وكان من التقدير الحق الصحيح أن قریشا لابد أن تسوق أمامها بنى هاشم ومن بقى هناك في مكة من بنى عبد المطلب ، ومن كانوا يخفون إسلامهم تقية وحرجا .

وكان كل تقدير من هذه الأمور صحيحا واقعا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرج شديد فيما ظنه كائناً لا محالة ، فأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يكون الضرب على بصيرة ، بل إنه نهى عن قتل بعض الناس وسماهم لهم بأسمائهم (٢) إذا كانوا في صفوف الأعداء .

وهكذا أخذ الواردون على الختوف من أصحاب رسول الله حذرهم الشديد أن يخالفوا أمر رسول الله .

(١) سورة الأنفال : ١٠ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٦٢٩/١ .



إلى بَدْرٍ



## إلى بَدْرِ

ثم استشار النبي أصحابه في العمل الذي يتخذونه لهذا الموقف الخطير بعد أن خرجوا من المدينة فسمعوا بمسير قريش هذا المسير ، وكان ذلك عملاً بمبدأ الشورى الذي أوصى به الكتاب الكريم ودلت عليه سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام في أخذه بما يشير عليه أصحابه به مهما كانت النتائج ، كما حدث في أحد من بعد بدر .

وقد تكلم كثير من المهاجرين فأحسنوا ، وكان من هؤلاء الذين خطبوا في القوم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق ، كانا في أول من تكلم من الناس فقالا وأحسننا ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

يا رسول الله ، امض لما أراد الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وزورك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (١) لخالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فلما قال المقداد ذلك قال له الرسول خيرا وأثنى عليه ودعا له (٢) .

---

(١) برك الغماد ، بكسر الباء وفتحها وتسكين الراء : فى أقاصى الحجر وانبرك : حجارة مثل حجارة الحرة خشنه وعرة يصعب المسلك عليها ( معجم البلدان : برك )

(٢) سيرة ابن هشام : ٦١٤/١ .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يتأذى في الاستشارة لانه يريد ما يقول الأنصار ليستجلى موقفهم قبل أن يورطهم معه في القتال . وقد كانت شروط بيعة العقبة — كما عرفنا غير مرة — حماية النبي من أى عدوان يقع عليه داخل ديارهم ، لا أن يقوموا هم بحرب خارج المدينة ، فقال النبي لهم بعد كلمة المقداد :

« أشيروا على أيها الناس » (١) .

وعرف الأنصار ما يريده الرسول ، وأنه إنما يقصدهم هم باستمراره في الاستشارة ، وقد فرغ المهاجرون من إبداء آرائهم ، دون أن يصير على أمر دون الأنصار .

فبادر سعد بن معاذ الذى كانت بيده رايتهم ، فسارع في فنون من القول الجميل — كما يقول أهل السير — وكان فيما قال :

لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ، وعلى السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالله لو استعرضت هذا البحر لحضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، فلعن الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا يا رسول الله على بركة الله تعالى (٢) .

ولمح الرسول من كلام سعد واستقبال الأنصار لقوله أنهم راضون بما قاله فأشرق وجهه بالسرور فقال « سيروا وأبشروا ، فان الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين ، ووالله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » (٣) .

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦١٥ .

(٢) جوامع السيرة : ١٠٩ ، زاد المعاد : ٨٦/٢ .

(٣) زاد المعاد : ٨٦/٢ .



ولقد برهن الرسول عليه الصلاة والسلام في جميع تصرفاته على عبقرية حربية فذة ، إذ لم يرض — من أول الأمر ونهايته — أن يكون جيشه خليطاً من المسلمين والمشركين ، كما كان أهل مكة ، إذ ساقط أمامها بنى هاشم وبنى عبدالمطلب جميعاً — ممن كانوا باقين في مكة — وقد حدثت عائشة رضي الله عنها قالت :

خرج رسول الله إلى بدر ، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل كانت تذكر فيه جرأة ونجدة فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأتبعك وأصيب معك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا . قال « فارجع فلن نستعين بمشرك »

ثم أدركه الرجل بالشجرة فقال مثل مقالته . ثم أدركه بالبيداء فقال « أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم . قال « انطلق » (١) .

وهكذا فعل رسول الله ما ينبغي أن يسلكه كل قائد ماهر يذهب إلى الميدان ، ثم لم يسمح لقوته بالتقدم من وادي ذفران على يمين الصفراء (٢) قبل أن يستطلع موقف العدو لمعرفة المعلومات الكافية عن هوته ومواقفه حتى يقرر خطته طبقاً لما يعرف ، وليأمن على نفسه وجيشه خطر المفاجأة .

ومن أجل ذلك أرسل النبي (دورية) للاستطلاع ، تتألف من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، ومعهم نفر قليل من المسلمين ، للتوجه إلى ماء بدر لاستطلاع أخبار المشركين .

وحتى ذلك الحين لم يكن المسلمون قد فقدوا الأمل بعد في القبض على القافلة ، فقد ظنوا أن مكانها أقرب إليهم من جيش مكة . ولكن المفاجأة هزتهم

(١) سير أعلام النبلاء : ٣٥٩/١ .

(٢) الصفراء : واد كثير النخل والزرع والماء ، سلكه رسول الله غير مرة ، ويبيه وبين بدر مرحلة ، وهي لجهينة والأنصار وبنى فهر ونهد (معجم البلدان : الصفراء )

حين عادت هذه (الدورية) ومعها غلامان من قريش كانا قد انفصلا عن الجيش القرشي ليستقوا الماء ، فأخبرا النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشا قد اتخذت موقعها وراء الكتيب الذي بالعدوة القصوى .

وكان هذان الغلامان هما : أسلم غلام بنى الحجاج من سهم . وعريض أبويسار غلام بنى العاص من أمية (١) ، فلما حضرا بين يدي الرسول استجوبهم بنفسه فأجاباه .

قال الرسول : كم القوم ؟

فقالا : كثير عددهم ، شديد بأسهم .

فسألهما : « كم عدتهم ؟ »

فقالا : لا ندرى .

فقال لهما : « كم تنحرون من الجزر كل يوم ؟ » .

قالا : يوما تسعا ويوما عشرا .

فاستنبط رسول الله صلى الله عليه وسلم — مما جرت به العادة في الإطعام — أنهم ما بين التسعمائة والألف . وحين أخبره الغلامان أن أشراف قريش جميعا قد جاءوا في هذا الجيش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبوالبختري بن هشام وحكيم ابن حزام ونوفل بن خويلد والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل ابن هشام وأمّية بن خلف ونبية ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود وغيرهم من الكبراء والأشراف — حين علم الرسول أن هؤلاء قد جاءوا التفت إلى المسلمين قائلا لهم :

« هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » (٢) .

(١) جوامع السيرة : ١١٠

(٢) تاريخ الطبرى : ٤٣٧/٢

وكان أهل مكة منذ خرجوا منها ينحرون كل يوم من الجزور التي ساقوها  
لطعامهم عشرا أو تسعا ، فنحر أبو جهل بن هشام وأمّية بن خلف وعتبة وشيبة  
ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى بن هشام الأسدي والحارث بن  
عامر بن نوفل .

كل من هؤلاء نحر على التوالى عشرا ، سوى أمّية وشيبة فقد نحر كل منهما  
تسعا ، واشترك نبيه ومنبه في عشر ، فهذه سبعة أيام على الطريق نحروا فيها  
ثمانية وسبعين جزورا أطعموا بها الجيش ، فاذا كانت المدة أسبوعين حتى وصلوا  
إلى العدو القصوي فقد نحروا أكثر من ضعف هذا العدد من الجزور .

ثم كان معهم العباس بن عبد المطلب ، قد اضطروه كما اضطروا بني هاشم  
الباقين في مكة للخروج معهم ، فاضطروا العباس أن ينحر هاشرا كما اضطروا  
كذلك حكيم بن حزام أن ينحر ليكون من المطعمين .

وقد قيل إن عشر العباس نحرها يوم الواقعة وإبان القتال فيها فأذن الله  
أن لم يأكل أحد منها ، وأكفئت القدور بلحمها حين أصاب قريشا ما أصابها .  
ثم كان أن ذم الله سبحانه هؤلاء المطعمين ، ماعدا من اضطروهم إلى النحر  
والإطعام — بقوله سبحانه « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » (١)  
وكان اثنان من الصحابة قد مضيا فنزلا بدرا في الوقت الذي عادت فيه  
( دورية ) الاستطلاع بالغلامين ، هما بسبس بن عمرو وعدى بن الزغباء ،  
كان الرسول قد بعثهما أيضا يتجسسان له الأخبار ، فمضيا حتى نزلا بدرا ،  
فأنابا إلى تل هناك بقرب الماء ، وأخذوا دلو لهما ليستقيا .

وبينما هما على الماء إذ سمعا جارتين من جواري الأعراب الذين يزلون  
على تلك المياه تتخاصمان :

(١) سورة محمد : ١ .

فقلت إحداهما للآخرى : أعطيني ديني  
فقلت لها صاحبتها : إنما تأتي العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم  
أفضيك الدين .  
وكان بجوارهما رجل أعرابي يقال له « مجدى بن عمرو » فصدقهما فيما قالتا  
من انتظار العير وقرب ورودها ، ثم خلص بينهما وكفهما عن الخصام حتى  
تأتى العير فتسد إحداهما دينها للآخرى .  
وإذ سمع مبعوثا رسول الله ذلك وأكدها عادا إلى رسول الله بما علما فأخبراه  
من فورهما .

ولكن القافلة المنتظرة لم يقدر لها أن تجيء إلى بدر ، فان قائدتها أبا سفيان  
— وكان شديد الحذر والحيلة — سبق العير يتلمس الأخبار بنفسه مخافة أن يكون  
محمد وأصحابه قد عملوا على اعتراضه في الطريق أو سبقوه إلى بدر .  
وقبل أن يرد أبو سفيان ماء بدر صادف في طريقه مجدى بن عمرو ، ذلك  
الأعرابي الذى كان قريبا من الماء الذى استقى منه صاحبا رسول الله  
وتخاصمت عنده الجاريتان .

وسأل أبو سفيان مجدى بن عمرو قائلا له : هل رأيت هنا أحدا ؟  
فأجاب مجدى : أنه لم ير غير راكبين أناخا إلى هذا التل ونزلا إلى ذلك الماء ،  
ثم أشار إلى حيث أناخ الرجلان .  
وأسرع أبو سفيان إلى ذلك المكان الذى أناخا فيه ، يسأل تجاربه في قيافة  
الآثار وكان خبيراً بها ، وتفحص المناخ ، فأخذ روثا من بعيريهما فوجد فيه نوى ،  
فعرّف أنه من علائف يثرب ، ومهما كان أبو سفيان لا يعرف من هما الرجلان  
وهل هما من أصحاب محمد أم من غيرهم ، فانه حذر الأمر وخافه وأسرع  
راجعا إلى قافلته ، ثم مال بها عن الطريق المعتاد آخذا ساحل البحر وساقها سوقا  
عنيقا ، فنجى بقافلته كلها .

وأصبح الغد والمسلمون في انتظار مجيء أبي سفيان ، فاذا الأخبار تصل إليهم أنه قد فاتهم وأن القافلة نجت بأكملها ، وأن مقاتلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم وهم في العدو القصوى .

وإذن لقد أصاب أبو سفيان من حذره للرصد المترقب له في بدر ، ففضى بعيدا عن تلك المياه وسلك منخفض الطريق قريبا من الساحل .

حتى إذا دنا من الحجاز جعل يتجسس الأخبار ويسأل كل من يلقي من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان : أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فاطمأن إلى الحذر الذي حذره وخافه ومضى في طريقه الجديد (١) .

وكان لا بد أن تضيق نفوس بعض القوم من المسلمين لهذا الذي ضاع من الأمل العريض في المغم ، وأن يشير بعضهم بأن يعودوا إلى المدينة ، مادام قد فاتهم هذا الذي خرجوا له .

ولكن الأمركان قد قضى له وجعل الله فيه أمرا من الحتم أن يحدث ، رغب هؤلاء أو لم يرغبوا ، وذلك في قوله سبحانه :

« ولإيكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين (٢) » .

فحيث فاتت الطائفة الهينة المرتجاة فلا بد من ذات الشوكة مهما ضاقت النفوس وزلزلت القلوب . وكذلك قضى الله ، فحين بعث النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى بدر ، ولم يكونوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم كل هذا الخروج - رجعوا إلى رسول الله يخبرونه بما صارت إليه الأمور .

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٢٧

(٢) سورة الأنفال : ٧

أما أبو سفيان فلم يكذب يضمن لنفسه وقافلته النجاة حتى أرسل إلى جيش قريش بالعدوة القصوى يقول لهم :

إنكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم ، فقد نجوت بها ، فارجعوا .  
 ووجدت مقالة أبي سفيان هوى وقبولا في نفوس كثير من قريش ولا سيما عقلائهم ، وعلى الفور رجح الأحنس بن شريق الثقفي بجميع بني زهرة ، وكان حليفا مطاعا فيهم فقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت .  
 بل ربما أشار الأحنس على قريش جميعا أن ترجع ، فعصوه فرجع هو وبني زهرة ، فلم يشهد بدرا زهري قط .

ولقد اغتبطت بني زهرة — فيما بعد — برأى الأحنس ، فلم يزل فيهم معظما مطاعا (١) .

وكذلك لم يكن قد نفر مع قريش أحد من بني عدى بن كعب ، فلم يحضر قط بدرا مع المشركين عدوى ولا زهري أصلا .

ثم أرادت بنو هاشم الرجوع أيضا فاشتد عليهم أبو جهل بن هشام وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

ومضى أبو جهل يقول :

والله لا نرجع حتى نرد بدرا — وكانت بدر موسما من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سوق كل عام فنقيم عليها ثلاثا ؛ وننحر الخزر . ونطعم الطعام . ونسقي الخمر . وتعزف علينا القيان . وتسمع بنا العرب . فلا يزالون يهابونا ألبدا (٢) .

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٨٦

(٢) تاريخ الطبري : ٤٣٨/٢

وأصاخ القوم للدعوة أبي جهل وجمعه حتى يقيموا على بدر ثلاثا ينحرون  
الجزر ويطعمون الطعام ويشربون الخمر وتعزف عليهم القيان وتسمع بهم العرب  
ويعسروهم فلا يزالون يهابونهم بعدها أبدا .

ثم قام بعد أبي جهل سهيل بن عمرو يخطب الناس ويحضهم على النفير —  
وكان سهيل خطيبا مفوها — فكان مما قال :

يا آل غالب أثاركون أنتم محمدا وأصحابه يأخذون غيركم ؟ من أراد مالا  
فهذا مال ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

فكان سهيل ممن حرض القوم مع أبي جهل على القتال (١) .

وهكذا كان رأى أبي جهل وندائه . ورأى سهيل وقوله ، وهكذا سمعت  
لهما قریش واستجابت لهما ونزلت على هواهما ، وقد غرهم أن العير قد  
نجت وأن أموالهم سلمت إليهم .

وقد يكون بعض القوم قد تردد قليلا وتروى في الأمر ، ولكنهم خافوا  
أن يعلنوا ما رأوه من العود إلى مكة مثلما عاد بنو زهرة فيتهمونهم بالجن من  
الناس ، ومن أبي جهل المتفحش الثرثار ، وبذلك أخذ جيش المشركين يتحرك  
في اتجاه بدر .

وقد ظهر للأعين بكل جلاء — فيما بعد — أن إفلات العير دون أن تقع  
في قبضة المسلمين كان خيرا لهم وللدین ، قد أراد الله لهم وله ، برغم ما كان  
قد أحزن بعضهم ، وذلك لأمر :

أولها : أن وقوع العير في قبضة المسلمين الذين هم في خارج المدينة كان  
لابد أن يحمل قریشا على الاستماتة في الدفاع عنها أو استردادها ، وربما أصاب  
المسلمين من ذلك أذى شديد .

(١) سير اعلام النبلاء : ١٤١/١ .

وثانيها : أن نجاة العير أدت إلى تخلى بنى زهرة عن القتال إذ رجع الأخنس ابن شريق بهم جميعاً - كما ذكرنا من قبل - وكانوا قد خرجوا مع القوم ، ثم أوقعت نجاة العير تردداً خفياً في نفوس من خافوا أن يتهموا بالجن والخوف فعضوا مع القوم على غيظ ممن رموهم بذلك ، وكذلك كان حال الذين مضوا معهم للدفع العصبية لا غير ، فنقصت بذلك كله قوة المشركين وحدث فيها تخلخل نحيف .

وثالثها : أن الله رحم المسلمين فوقاهم شر الاندفاع وراء المغنم الباردة السهلة . وحماهم أن تتعرض نفوسهم لمفاتن الطمع . وصفوفهم لمخاطر التفرق والانحلال .

ورابعها : أنه لا نزاع في أن نصر المسلمين على جيوش الشرك والأوثان كان أهم للإسلام وأجدي على مستقبله من غنيمة قافلة تجارية مهما كان فيها من أموال .





يَوْمُ الْقِتَالِ



## حَوْمَةُ الْقِتَالِ

وكان من البديه في رأى بعد أن علم كل من الجيشين بوضع عدوه وموقفه أن يتسابقا إلى آبار المياه الموجودة في نواحي بدر كلها ، باعتبار المياه من العوامل الضرورية الأولية في حرب تنشب في الصحراء ، فما لم تتوفر هذه المياه فإن من الحتم أن يبيد جيش برمته مهما كان ضخما إذا لم يحصل على مايكفيه منها . وقد قدر لجيش المسلمين — مع التجاوز في تسميته بجيش — فوصل إلى منطقة الآبار قبل جيش المشركين بوقت قليل ، لعله نصف نهار ، وكان في تقدير قريش أن تصل إلى المياه وتعسكر على عيونها لتمنع المسلمين منها وتلجئهم إلى الارتداد .

وكان أن بدلت السماء ظن قريش ، فبينما اقتربوا من بدر واقرب كذلك المسلمون أرسلت السماء سحبا مثقلة حافلة بالغيوث الثقيلة فصبت أنقالتها على الزاحفين من الناحيتين .

وسرعان ما تحولت الأرض التي يسير عليها المشركون إلى أوحال وأغوار ، فكلما انزعوا قدما أو رجلا غاصت قدم ورجل ، وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا بها مهما بذلوا من جهود .

وأما أرض المسلمين فقد أصابها أطراف السحب بمطر خفيف وكانت أرضهم رملة لا أوحالا فقلبت الأرض تحمهم وسهلت لهم مضاعفة السير ،

فساروا وهم في بهجة وانتعاش ، وتعثر المشركون ، ووقفوا ليتخلصوا من الأذى والأضرار .

وعلى إثر وصول المسلمين إلى بدر عشاء تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم صوب الماء ، حتى إذا كان على أدنى مكان منه وقف عنده ثم قال : « أشيروا علي في المنزل » .

وتقدم الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح — وكان رجلا عالما بيدر ومائها وكل قليب فيها فقال :

يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلك الله وليس لنا أن نتقدم عنه ولا نتأخر ، هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال له رسول الله : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .

فقال الحباب : يا رسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم — أى أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة — فنزله ، ثم نغور ماوراءه من المياه والآبار ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه فنشرب ولا يشربون . ولما كان الأمر شورى — كما أسلفنا من قبل ولا سيما في مهام الأمور — فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبل الرأى من الحباب بن المنذر ورحب به ، ثم أمر — على الفور — بتنفيذ ما أشار ، حين اتضح له صواب الرأى فيه .

وكأنما كان هذا الأمر الذى فتح فيه باب الرأى درسا يعلم المسلمين كيف يجدون منافذ السلامة في أوقات اضطرارهم وعند مأزقهم ، وهم لا يجدون هذه المنافذ إلا بتبادل الآراء والنزول على أحسنها وأكثرها صوابا .

ومن المحقق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثقة من النصر ، وذلك بوعد الله الذى سبق له ، ولكنه ترك الناس يرون لأنفسهم ويبسرون لأموارهم حتى يصير عندهم تبادل الرأى عادة والمشورة خلقا ، فانه إن غاب

هو صلى الله عليه وسلم وامتنعت مع غيابه أخبار السماء . فانه لا بد من أن يرجع الناس إلى عقولهم وإلى تجاربهم ليضمنوا لأنفسهم الفوز والنجاة .

وإذ تم بناء الخوض على أغزر الآبار وأعذبها ماء . ولم يكن قد مضى غير شطر من الليل جاء سعد بن معاذ حامل راية الأنصار ثم قال :

يا نبي الله ، نبني لك عريشا من جريد تكون فيه . ونعد لك ركائبك . ثم نلتى عدونا ، فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا . وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا . فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلتى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك (١) .

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحب راية الأنصار ما قال فأثنى عليه ودعا له بخير ، ثم أمر ببناء العريش .

ولكن النبي — قبل أن يمضي إلى عريشه حين تم بناءه — مشى على موضع الموقعة التي ستكون جزءا جزءا ، فعرض على أصحابه مصارع رءوس الكفر من قریش مصرعا مصرعا ، يقول « هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان » فما عدا واحد منهم مضجعه الذي حله رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

ولم يدع رسول الله أصحابه دون أن يسوى صفوفهم ويعملها ، فكان يمر وفي يده قدح (٣) يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزيرة حليف بني النجار فرآه النبي متقدما عن الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال له « استوياسود بن غزيرة » . فقال سواد : يا رسول الله ، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق .

(١) سيرة ابن هشام : ١/٦٢٠

(٢) جوامع السيرة : ١١٢

(٣) القدح ، بكسر فسكون : السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

فأراد النبي أن يأخذ سواد منه قوده ويطعنه بالقدح كما طعنه . فاعتنق رسول الله ، فدعا له بخير ثم مضى إلى العريش .

وإنه ليلبدو من اختلاف السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يلزم العريش طول المعركة ، إذ ليس معنى بناء عريش له أن ينقطع القائد عن المعركة التي يحضرها ويديرها ، فبرغم ما قيل من أنهم صنعوا له عريشا . فقد روي أنه كان أشد الناس بأسا ، وكان أقرب إلى العدو من كل الناس ، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف إلا لمن يزاوِل القتال ويغشى صفوف المحارِبين .

وقد قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه في ذلك :

لما أن كان يوم بدر وحضر البأس اتقينا برسول الله ، فكان من أشد الناس بأسا ، وما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه (١) .

\* \* \*

وفوق كل إعجاب وتقدير يستحق موقف المسلمين هنا :

فهم أولا يعلمون أن قريشا تفوقهم في العدد ، وأنها على ثلاثة أمثالهم . مع التفوق في العدة والسلاح ، وهم مع كل هذا الذى علموه واستيقنوه قد اعتمروا على لقاءها وقتالها .

ثم هاهم أولاء يرون الغنيمة قد فاتتهم وأفلتت القافلة منهم ، فلم يصبح لهم مطعم قريب يذهبون وراءه أو يحفزهم للقتال ، ولكنهم على ذلك يؤيدون النبي ويسترسلون في طاعته ويعزرونه وينصرونه .

ومهما ترددت بعض النفوس بين الأمل الباهت في النصر ، والخوف المائل في الهزيمة ، فهم ينسون نفوسهم . ويفكرون في نبيهم . ويخشون أن يقع في أيدي الأعداء ، ولا شئ يشغلهم غير هذا الخوف ، ولذلك فهم قد مهدوا له سبيل الرجوع آمنا إلى إخوانهم الذين تركوهم في المدينة من المسلمين .

(١) تاريخ الطبرى : ٤٢٦/٢

ولقد فرغوا من الاعتقاد الجازم بأن من وراءهم من الذين لم يخرجوا من المدينة كانوا أشد نصرة لرسول الله وحبا له ، فلم يكن الذين خرجوا أكثر إيمانا ولا حبا من الذين لم يخرجوا .

ومهما ذهب الباحث المحقق إلى جانب من جوانب هذا الأمر — فإنه كله يدعو إلى الإعجاب والدهشة ، ويضئ للقلوب ليرىها وهج الأنوار التي يشعلها الإيمان .

\* ~ \*

ونزل المشركون منازل القتال بعد أن رأوا ما أجزع نفوسهم من تغوير المسلمين للآبار والمياه التي عرفوها من قبل من مياه بئر ، وقد وثقوا — حين رأوا ما رأوا — أنه لم يعد مطمع لأحد منهم في الارتواء إلا من البئر التي أبقاها المسلمون وحدها وبنوا عليها لهم حوضا ، ثم وقف حراسها يحمونه من كل وارد من الأعداء .

ولم يكادوا يستقرون في مواقعهم الجديدة حتى بعثوا عمير بن وهب الجمحي يتقصى لهم أخبار المسلمين ويرى منازلهم ، فركب فرسه ثم جعل يجول حول معسكر النبي على مرأى بعيد . ثم رجع إليهم ببشراه لهم يقول :  
ثلثائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون . ولكن ، أمهلوني حتى أنظر ،  
ألقوم كمين أو مدد ؟

ثم ضرب عمرو بن وهب بفرسه مرة ثانية في الوادي وجعل يتقلب في أنحائه ويقرب من المسلمين ويبعد ، فلم ير أحدا من حولهم من أى ناحية يكون مددا لهم أو كميناً ، ولكنه إذ اقترب من المسلمين فقد رجع عن رأيه الأول أو عدله فرجع إلى قريش يقول لهم :

ما وجدت شيئا ، ولكني رأيت البلايا تحمل المنايا ! نواضح (١) يثرب تحمل

(١) النواضح : الأبل عامة .

الموت الناقع ، فان أصابوا مثل عددهم منكم فما خيرة العيش بعد ذلك ؟ فانظروا رأيكم ، فانهم قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، فلا يقتل منهم رجل قبل أن يقتل رجلا منكم .

ولقد كان جديرا بالمشركون أن يفكروا طويلا فيما هم مقدمون عليه ، مهما كان المسلمون أقل منهم عددا وقوة ، فليست المهارة في الحرب باقتحامها دون بصيرة .

ذلك التفكير كان جديرا بالمشركون مخافة أن يقتل المسلمون عددا منهم مساويا لهم ، ثم لابد أن هذا العدد سيتناول بعض أشرف مكة ، أو يتناولهم هم جميعا ، وسوف لا يقصلون إلا لغرماهم من الرؤساء والأشراف وذوى البغى والبطش ، وإذا حدث ذلك — ولابد أن يحدث كله أو أكثره — فان مكة لن تظل على مكانتها التى هى لها فى الجزيرة العربية كلها .

ولقد حدث ذلك الذى كان جديرا — وعلى الأقل بعقلاهم — أن يفكروا فيه ، ففكروا وقلبوا الأمور ، ووقف حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة يخطبان فى القوم ويهييان بهم أن يرجعوا ، فلا تقع حرب ، فأبى حتى أبى جهل أن يدع القوم ليسمعوا لهم أو ينزلوا على آرائهم ، وساعده نفر من أشد المشركين كفرا وعنادا .

لقد وقف عتبة بن ربيعة على جمل أحمر له يقول :

يامعشر قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته .

فارجعوا يامعشر قريش ، وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فان أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون .



ثم قال عتبة :

وإني أرى قوما مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير ، يا قوم ، اعصوها اليوم برأسي وقولوا : جبن عتبة بن ربيعة . ولقد علمتم أنني لست بأجبنكم ! (١)  
ولقد كاد قول عتبة يكون رأيا ، الا أنه أبدى فيه إصرار نفسه على إثارة العرب على النبي ، فلم يكن حبه للنجاة إلا لينجو بنفسه ، أما محمد ورسالته الغراء فانه مصر على أن يحرض العرب عليهما ما أمكنه التحريض .  
ثم إن أبا جهل بن هشام بن الحنظلية استشاط غضبا لهذه الدعوة من عتبة للرجوع والنكوص وقال له :

أنت تقول هذا ؟ لقد ملئت رثلك وجوفك رعبا !

فقال له عتبة :

إياي تعير بهذا : ستعلم اليوم أننا أجبن ؟ (٢)

ومضى أبو جهل لم يلتفت ، فبعث إلى عامر بن الحضرمي يقول له :  
هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينيك ، فقم فانشد مقتل أخيك . فقام عامر صارخا :

واعمره ! واعمره !

وعمر القتيل هذا هو عمرو بن الحضرمي الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش ، رماه واقد بن عبد الله بسهم فأرداه — كما بينا من قبل في « مفترق الطريق » .

ولقد خيل إلى أبي جهل أن المسلمين أهون عليه من الهوان . فقال لقومه قولا مضحكا تضحك منه القرون والأجيال ، قال لهم :

(١) تاريخ الطبري ١١٦/٢

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٣٦

خذوهم أنحدًا ، فاربطوهم فى الحبال ، ولا تقتلوا منهم أحدًا !  
وقد سخر الله به حين ظن ذلك ، فنزل فيه قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا  
أصحاب الجنة » (١)

« \* \* »

ثم هاجت وقعة بدر ببنداء ابن الحضرمى وأبى جهل ، ومن أجل ذلك قالوا  
إن الذى هاج وقعة بدر وسائر الحروب التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وبين مشركى قريش ما كان قتل واقد بن عبد الله التميمى لعمر بن  
الحضرمى — قاله عروة بن الزبير (٢) — إذ كان ذلك فى سرية عبد الله بن جحش  
أول ما أصاب الناس به بعضهم بعضا من الحرب ، وكان ذلك قبل مخرج أبى  
سفيان وأصحابه بالعرى إلى الشام .

ولكنه يبدو أن عروة بن الزبير أراد بقوله هذا بداية سلسلة الحروب ،  
ولم يرد السبب الذى من أجله نشبت ، فإنه لم يكن هناك من سبب أهم ولا  
أقوى من أن رسولا بعث برسالة عامة ثم عارضها قوم من حمى قريش ، فالحرب  
كانت واقعة لا محالة قتل ابن الحضرمى أو لم يقتل .

ولقد بدأت ساعة الحرج بموقف أبى جهل ودعوة ابن الحضرمى على النار  
وضاع بما كان من هذا وذاك كل أمل فى التعقل والتروى ، ولم يبق مفر من  
الالتحام فى معركة فاصلة بين جيش الاسلام وجيش الشرك والأوثان .

ثم زحف المشركون نحو صفوف المسلمين ، واصطف الفريقان وجها لوجه  
— كعادتهم فى الحرب والشجاعة — وهما لا ينتظران إلا الشرارة الأولى التى تشعل  
نيران القتال .

(١) أسباب النزول بهامش الجلالين : ١١٦/٢ والآية من سورة القلم : ١٧.  
(٢) تاريخ الطبرى : ٤٢٠/٢ .

وبدأ القتال — على عادة العرب — بالمبارزة ، فاندفع من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً سيئ الخلق شرس الطباع شديد العداوة لرسول الله ، ثم صرخ قائلاً :

أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدهم أو لأموتن دونه .

فخرج له من صفوف المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، حتى إذا التقيا ضربه حمزة بسيفه ضربة أطاحت بنصف ساقه ، فوقع الأسود على ظهره ، ولكنه ظل يزحف — ودمه يسيل — إلى الخوض ، يريد أن يبر بفسمه ويمينه ، فعالجه حمزة ثانية خر منها صريعاً دون الخوض .

ولا شيء يثير ثائرة المقاتلين أكثر من رؤيتهم للدماء ! أو الأجلد أن يقال إنه لا يثير العصبية أكثر من مظهر للعداء هو آخر ما في اللعبة من سهام ، وهو القتل ، فبدأت الحرب .

وبدأت جادة عنيفة إذ خرج بيت قرشي برمته يدعو للمبارزة حمية وعصبية مما كانوا قد تأثروا به من قول أبي جهل لسيدهم :

عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، والوليد بن عتبة ، خرجوا يدعون أقرانهم للمبارزة ، فبرز لهم ثلاثة إخوة من الأنصار ، هم معوذ ومعاذ وعوف أبناء الحارث ، فأبى القرشيون إلا أن يبارزوا أقرانهم من قريش ، ونادى عتبة ابن ربيعة قائلاً :

ما لنا منكم حاجة ، نريد قومنا . . . يا محمد ، أخرج لنا أكفأنا من قومنا ومن بني عمنا من بني عبد المطلب .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبه ويرميه ببني عبد المطلب ، وهل هم إلا صناديد قريش ؟ فأمر أن يخرج لهم ثلاثة من بني عبد المطلب ، فنادى عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب

ابن عبد المطلب ، ناداهم الرسول صلوات الله عليه ، كل واحد منهم باسمه فبرزوا :

كل قرن من هؤلاء برز إلى قرنه ، والمبارزة — يومذاك — كانت مزدوجة من طرفين ، فكل واحد يبارز واحدا ، ثم هم جميعا — من ناحية أخرى يعاون بعضهم بعضا ، حتى ينتصر فريق على فريق : لكل واحد واحد ، والثلاثة للثلاثة جميعا .

ولم يكذب أبناء عبد المطلب يقابلون أقرانهم حتى قتل حمزة بن عبد المطلب قرنه شيبه بن ربيعة ، وقتل على بن أبي طالب أصغر الثلاثة سنا قرنه الوليد أصغر الثلاثة الآخرين .

وخلا ميدان المبارزة لعبيدة بن الحارث وقرنه عتبة بن ربيعة ، فأصاب كل منهما الآخر بجراح ، فجاءت حينئذ نوبة الثلاثة على الثلاثة ، ففكر حمزة وعلى على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة جريحا إلى صفوف المسلمين .

لقد وقع هذا كله في سرعة البرق أو أسرع منه ، فدعا ذلك من نفسه إلى التحام الجيشين والتقاء الفريقين ، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة .، وبعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بثمانية عشر شهرا . (١)

وإذن فيكون قد مضى على المشركين منذ قيامهم من مكة ثمانية عشر يوما أو تسعة عشر ، ويكون قد مضى على المسلمين تسعة أيام أو عشرة ، وقد قدمنا لذلك حسابه من قبل عند الموازنة بين سرعتين والمسافتين .

وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة المعركة بحذق ليس له مثيل ، وربما بقى أمر من سياسته في شئون القتال لم يزل إلى يومنا هذا من الأسس العسكرية البالغة غاية البراعة ، وذلك حين أصلد أمره إلى المقاتلة بقوله :

(١) تاريخ اليعقوبي : ٤٥/٢ ، ومروج الذهب : ٢٩٥/٢ .

« إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبال واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ويعنى هذا الأمر أن يؤخروا قذف السهام من الأقواس على جيوش الأعداء حتى يقتربوا منهم ، لتكون الإصابات مسددة مركزة ، وهو نفس المبدأ الذى تستخدمه الجيوش الحديثة عند إطلاق النيران ، ويعرف باسم « كبت النيران » أى حتى يصل العدو إلى متناول الرمي لتصيب كل رمية مقتلاً .

ثم إن مقابلة العدو بوابل منهمر من السهام من مسافة قريبة يروع العدو ترويعاً شديداً ويكسر روحه المعنوى ويجعل خسائره فادحة ، بينما يطيش الضرب على المسافات البعيدة ويكشف مواقع الرماة .

أما السلاح الأبيض فهو بطبيعة الحال سلاح القتال وجهاً لوجه ، ولا يلجأ إليه المقاتلون إلا إذا التحمت صفوفهم وتداخلت جموعهم ، وحينئذ يكف الرماة عن قذف سهامهم ، بينما يحمى وطيس القتال المتلاحم بالخناجر والسيوف .

وهذا المبدأ الحربى — والذى مازال إلى اليوم — هذا الذى عناه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله :

« ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

\* \* \*

ومع ما كان يملأ نفس النبى من الإيمان والثقة بوعد الله له بالنصر فقد أشفق صلى الله عليه وسلم على المسلمين حين رأى قلة رجاله وكثرة العدو ، وحين علم ورأى عياناً أن بعض المسلمين يستشهدون .

وكان رسول الله يشرف أحياناً من عريشه وأحياناً من خارجه ، وليس معه غير أبى بكر وحده ، وسعد بن معاذ وقوم قليلون من الأنصار وقفوا على باب العريش يحرسونه . فحين رأى قلة قومه وكثرة عدوه استقبل الكعبة — وكان

المسلمون قد تحولوا إليها في الصلاة ، واتجه إلى ربه وجعل يناشده ما وعده به  
ويسأله أن يتم له النصر . ثم جعل يلح في الدعاء والتوبة ويقول :

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم  
فنصرك الذى وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد  
اليوم » .

ولم يزل الرسول كذلك مستقبلا القبلة يناجي ربه ماذا يديه حتى سقط  
رداؤه . وجعل أبو بكر من ورائه يردده على منكبيه ويهيب به مشفقا قائلا له :

يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك ! ولكن  
رسول الله استمر في درعه يدعو ويستغيث ، ثم أدركه ما كان يدركه من  
الوحي ثم أفاق ملتفتا إلى أبي بكر وهو يقول :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » (١)

وظل النبي فيما هو فيه من الانتباه للمعركة حيناً ، والتضرع والخشية حيناً آخر ،  
ثم خفق خفقة نعاس رأى في خلالها استجابة الله له بالنصر ، فاتجه إلى أبي بكر  
وقال له : « أبشر أبا بكر ، أتاك نصر الله ، ثم تلا قوله تعالى « إذ تستغيثون  
ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا  
بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (٢) »

واندفع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو المسلمين وصفوفهم يحرضهم  
على القتال والافتحام ويقول :

---

(١) سورة القمر : ٤٥، ٤٦

(٢) سورة الانفال : ١٠

«والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا . مقبلا  
غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة»

ثم أخذ بيده الكريمة حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وهو يقول :  
«شاهت الوجوه .. شاهت الوجوه» ثم قال لأصحابه : «شدوا»

~ \* ~

ونفخت من روح النبي العظيم ودعوته المستجابة نفحة نمرت قلوب المسلمين  
فحولت قلوبهم إلى كثرة ، وضعفهم إلى قوة ، وحكى الوطيس ودارت رحى  
الحرب ، واحتدم القتال ، واندفع المسلمون في قوة خارقة يحزون الرؤوس .  
ويقطعون الرقاب ، ويستأصلون شأفة المعاندين .

ولقد علت أصوات المسلمين بذلك النشيد الذى ابتدعه من قبل بلال بن  
رباع ، وتتابعت الكلمة الصادقة على أفواههم يملئون بها أرجاء بدر ويقولون :  
أحد . أحد .

ودوت هذه الكلمة العليا أشد مما يدوى الرعد . انطلق المسلمون بسيوفهم  
انطلاق العاصفة الماحقة تقتلع كل ما أتت عليه وتذرره كالريم .

وما هى إلا بعض ساعات من النهار حتى خيم الصمت على المعركة وهذا كل  
شئ فيها إلا هتاف المسلمين : أحد . . أحد . ثم أسفر هذا الصمت عن أشلاء  
مبعثرة للمشركين قد امتلأت بها حواشى بدر وساحاتها : ولم ينبج من الموت  
من القوم جميعا إلا من وقع في الأسر أو لاذ منهم بالفرار .

~ \* ~

وربما كان عمير بن الحمام مثلاً من أمثلة الاستبسال التي ظهرت من المسلمين في بدر ، وكان أصحاب النبي جميعاً مثله ، فإن عمير بن الحمام لما سمع رسول الله يحض على الجهاد فیرغب في الجنة ، كانت في يده بعض تمرات يأكلهن ، فقال : مرحى مرحى ! أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟

ثم رمى عمير بالتمرات من يده واقتحم القتال وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد  
إلا التقى وعمل المعاد  
والصبر في الله على الجهاد  
وكل زاد عرضة النفاذ  
غير التقى والبر والرشاد

ثم ظل عمير يقتل في القوم ما شاء الله له أن يقتل ، فلما استنفد قوته وأجله وقع شهيداً (١)

وربما كان مثل عمير هذا أو أشد منه إقبالا على الجنة والاستشهاد آخرون خروا مثله شهداء ، وكان منهم عوف بن الحارث بن عفراء أخو معاذ ومعوذ ، فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يرضى الرب من عبده ؟ فقال له رسول الله : « نمسه يده في العدو حاسرا »

ففرع عوف درعا كانت عليه ففقد فيها ، ثم أخذ سيفه فقاتل به القوم حتى خر سعيدها شهيداً (٢)

\* \* \*

(١) تاريخ الطبرى : ٤٤٨/٢ ، جوامع السيرة : ١١٣ ،

(٢) تاريخ الطبرى : ٤٤٩/٢ ،



ولقد وضع الإسلام قواعده هذه منذ ظهر في مكة . وكان منها قوله تعالى .  
 « أيجسب الإنسان أن يترك سدى » (١) أى أنه لا يترك مهملاً فلا يكلف ولا ينجازى .  
 أما التكليف فهو واقع عليه في الحياة الدنيا وعليه تترتب المجازاة . ونحن  
 هذه إن لم تقع ولم تتحقق في الدنيا فإنها ستكون في الآخرة بلا مرأ . . وهذا  
 يكن لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل والخالصة المؤمنين جميعاً - شئ  
 أشهى من الاستشهاد والموت في سبيل الله .

---

(١) سورة القيامة : ٣٦





مَصَارِعُ الرُّؤَسَا



## مَصَانِعُ الرَّءُوسِ

مروق أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري مروق السهم من صفوف المسلمين إلى راية المشركين فانتزعها من يد رجل مشرك يقال له أبو عزيز، وكان صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث ، (١) وقيل كان للمشركين ثلاثة ألوية أحدها مع أبي عزيز بن عمير (٢)

ثم لم تلبث الواقعة أن أسفرت عن نصر للمسلمين كان المعجزة الفريدة في تاريخ الحروب كلها ، ولقد صدق الله سبحانه حين يقول فيها : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فنثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٣) فهذه — في الحق — كانت يد الله وحده ، لأن نتائج المعركة جاوزت كل عقل ومنطق . وهو سبحانه يقرر ذلك في قوله :

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٤) ونظر الأشراف والكبراء من قريش أولم يحزن لهم أن ينظروا — فاذا كل امرئ يرى رأس صاحبه يهوى ، فيضيع رشده ويسلم هو الآخر رقبتة من حيث لا يستطيع أن يعي لنفسه أمرا أو يرى لفراره طريقا ، فان القدر نزل يزجر مدويا .

(١) سيرة ابن هشام : ٦٤٦/١ ، سير أعلام النبلاء : ٣٨٥/٢

(٢) الطبقات الكبرى : ١٥/٢

(٣) سورة الأنفال : ١٢ .

(٤) سورة الأنفال : ١٧ .

ومضى المسلمون وكأنما يختار كل واحد منهم من يريد قتله من الكفرة المعاندين ، لا يلفته عنه شيء ولا ينجيه منه شيء ، وإذا كل واحد منهم يرى الرأس الذى يطلبه ويقصد إليه ، عن وعى وثبات جأش قد هوى ، قبل أن يشتد به الضرب أو يناله السيف .

\* \* \*

وبالأمس - فى مكة - كان أمية بن خلف يعذب بلالا فى رمضاء مكة ، ويشده فى الحبال يجره بها الصبيان ، وكلما راودوا بلالا على الكفر أو على أن ينطق بسب محمد رد عليهم مراودتهم له صارخا فيهم قائلا : أحد . . أحد . . أما اليوم فيا بؤس أمية ، فقد حان لبلال المعذب المشدود فى الحبال أن يثأر منه لربه ولنبيه ولنفسه ، ولم يدعه بلال حتى خر ممزقا صريعا .

لقد رأى أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف ، ويبدو أن ذلك كان فى هدأة من المعركة أو أخرياتهما . وكان عبد الرحمن صديقا لأمية فى مكة وفى الجاهلية ، فناداه أمية قائلا : يا عبد عمرو - وكان هذا اسمه فى الجاهلية - فلم يرد عليه عبد الرحمن ، فقال له أمية : يا عبد الإله .

قال عبد الرحمن :

فالتفت فاذا أنا بأمية وابنه على ، وقد أخذ الأب بيد ابنه ، ومعى أذراع قد استلبتها ، وكان أمية مشرفا على الأسر ، فسألنى أن أطلب له الأمان وأن يدفع الغداء ، وقال لعبد الرحمن : نحن خير لك من أذراعك : فطرح عبد الرحمن سلبه من الدروع .

ثم قال عبد الرحمن :

فقلت : امضيا ، وأقبلت أسوقهما ، فبصر بلال بن رباح بأمية ، فنادى قائلا : يا معشر الأنصار ، أمية بن خلف رأس الكفر ، لا نجوت إن نجا !

قال عبد الرحمن :

فأحاطوا بأمية ، فأقبل الحباب بن المنذر ، وقد اضجعت عليه . فأدخل سيفاً  
فقطعت أصل فخذه ، فقامت عنه . واجتمع عليه خبيب بن يساف وبلال بن رباح  
وهو يكرر قوله : أمية رأس الكفر ، لا نجوت إن نجا ! فضربوه حتى صرعوه .  
أما ابنه على فقد قتله الحباب بن المنذر وعمار بن ياسر (١) فلم يحظ عبد الرحمن  
ابن عوف بأدراعه ولا احتفظ بأسيره ، وكان - فيما بعد - كلما ذكر بلالا قال :  
يرحم الله بلالا : ذهبت أدراعي وفجعتني بأسيري (٢)

ولقد كان أمية بن خلف حين جاء بدرا قد صار شيخاً ثقيلاً . وكان قد أجمع  
على القعود في مكة دون أن يصاب بهذه الحمى التي أصابت الناس في الخروج .  
فلما رأى ذلك منه عقبة بن أبي معيط جاءه بمجمره يحملها وفيها نار وجر حتى  
وضعها بن يديه وهو جالس في المسجد بين ظهرائي قدمه ثم قال :

يا أبا علي ، استجمر . فأنما أنت من النساء !

فقال له أمية : قبحك الله ! ثم قام فتجهز فخرج مع الناس (٣) .

ثم شاهد أمية بعينه في بدر ما فعل المسلمون بهم . ودارت عينه في أول  
المعركة وراء رجل مسلم فعل بالقوم الأفاعيل . فلما ألقى نفسه إلى عبد الرحمن  
ابن عوف سأله قائلاً :

من هذا الرجل المعلم في صدره بريشة نعام ؟

فقال له : ذلك حمزة بن عبد المطلب

فقال أمية : ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل !

ومنذ ذلك الحين أعدت قريش لحمزة ثأراً ومثلة لو استطاعت أن تفعلها !

(١) أنساب الأشراف : ١٩١/١ ، الدرر : ١١٩ ، زاد المعاد : ٨٩/٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٦٣٢/١ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤٣٠/٢ .

وأبو جهل بن هشام - فرعون هذه الأمة كما سماه رسول الله - وقد أبى أن يرجع إلى مكة دون قتال ، أو ربط المسلمين بالحبال - كما كان قد رأى ونصح - ثم يشرب نخب انتصاره على مياه بدر ويطرب لغناء القيان - هذا الطاغية رأى معوذ بن عفراء الأنصارى وأخاه عوفاً يهوى أولها عليه بضربة من سيفه تبتر ساقه ، ثم يعاونه أخوه ليو قعاه معانياً سكرات الموت .

ولم يكن معوذ ولا عوف يعرفان أبا جهل ، ولكنهما كان يسمعان أخبار إيدائه لرسول الله فنزلا إلى الميدان وهما لا يتمنيان غير اصطياده ولو كلفهما ذلك أن يهباً حياتهما لرسول الله . وقد فعلا .

ومنذ نزل هذان الغلامان إلى المعركة وقفنا في الصف بجانب القرشي المهاجر عبد الرحمن بن عوف ، ثم قالوا له : يا عم ، أتعرف أبا جهل ؟ فانه بلغنا أنه كان كثير الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدلهم عبد الرحمن عليه ، فشدوا عليه معاً (١) .

ويقص الطبري أن الذي قتل أبا جهل هو معاذ بن عمرو ، ولكن مهما اختلفت الأسماء على الرواة وأهل السير فان قصة مقتل هذا الطاغية قصة تشوق النفوس ، قال الطبري :

كان معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة (٢) يقول :

لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه أمر بأبي جهل أن يلتبس في القتلى وقال : .. « اللهم لا يعجزنك » .

قال : فكان أول من لقي أبا جهل معاذ بن عمرو : قال : سمعت القوم وأبو جهل محوط برجال من قومه كأنهم الشجر الملتف ، وهم يقولون : أبوالحكم لا يخلص إليه !

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٥٩/٢ .

(٢) سلمة : بفتح السين وكسر اللام .



قال معاذ : فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه . فلما أمكنتني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه : فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا النواة تطيح من تحت المرضخة (١) التي يدق بها النوى للعلف حين يضرب بها .

قال معاذ : وضربني ابنه عكرمة على عاتق فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فقد قاتلت عامة يومي ، وإني لأسحبها خلقي . وقد ربطها برباط - فلما آذنتي وأوجعني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت بها حتى طرحتها (٢) .

وعلق الذهبي على ما فعله معاذ هذا بقوله :

هذا والله الشجاعة ، لا كآخر إن خدش بسهم ينقطع قلبه وتخور قواه (٣)

قال معاذ أو الطبري : ثم مر بأبي جهل وهو عقير مجروح معوذ بن عنراء فضربه حتى أثبتته فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل . فر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس في القتلى . وقد قال لهم فيما بلغني :

« انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح بركبته . فاني ازدهمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله بن جدعان ، ونحن غلامان . وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوق على ركبته فجحش - أي خدش - في إحداها جحشا لم يزل أثره فيه بعد » .

وقال عبد الله بن مسعود :

فوجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه ، وقد كان لزمني مرة بمكة فأذاني ولكرني ، ثم قلت : هل أخزأك الله ياعدو الله !

(١) المرضخة : الحجر الثقيل الذي يكسر به النوى .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٥٤/٢

(٣) سير أعلام النبلاء : ١٨٠/١

قال أبو جهل : وبماذا أخزاني ؟ ليس على رجل قتله قومه من عار ! أخبرني عن الغلبة .

فقلت : لله ولرسوله

فقال أبو جهل : لقد ارتقيت يارويعى الغم مرتقى صعباً .

قال عبد الله : فاحتزرت رأسه ، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آله الذى لا إله غيره ؟ » — وكانت هذه يمين رسول الله - قال - قلت : نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يديه ، فحمد الله (١) .

وحدث عبد الرحمن بن عوف حديثاً طريفاً عن مقتل أبي جهل قال :  
إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثي أسنانهما ، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما فقال : يا عم ، أتعرفت أبا جهل ؟

قلت : نعم ، ما حاجتك ؟

قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسي بيده إن رأيته لا يفارق سواده سوادى حتى يموت الأعجل منا .

قال عبد الرحمن : فتعجبت لذلك .

فغمزني الآخر فقال مثلها . فلم ألبث أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما .

قال عبد الرحمن : فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبراه .

(١) تاريخ الطبرى : ٤٥٦/٢

فقال لهما رسول الله : أيكما قتله ؟

فقال كل منهما : أنا قتلته

فقال : مسحما سيفيكما ؟

قالا : لا

فنظر رسول الله في السيفين فقال : كلاكما قتله . وكانا معاذ بن عمرو

ومعاذ بن عفراء (١)

ولعل هذا كله الذى رواه أصحاب النبي قد حدث ، فتكاثر على أبي جهل ثلاثة سيوف من الستة التى كانت مع المسلمين فاشترك في دمه أكثر من واحد ليتوزع ثواب مصرعه على الأنصار والمهاجرين .

وان لأبي جهل بن هشام عند الله ورسوله سوءات وغباوات فقد كان أقسم قديما أنه لو رأى محمداً ساجداً لوطئ عنقه ، فجاءه ثم نكص على عقبيه : فقبل له : مالك ! فقال : إن بيني وبينه لحقولا من نار وهولا وأجنحة .

وقد نزل في ذلك قوله تعالى « أرايت الذى ينهى عبداً إذا صلى أرايت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرايت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى (٢) » ولئن كان ذلك قد نزل ينهى على أبي جهل ما فعل من نهى النبي عن الصلاة فلقد حقق الله وعيده فيه إذ قال « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة » (٣) ولم يرعو أبوجهل حتى لقي عقاب الله له في الدنيا « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (٤) » .

(١) سير أعلام النبلاء : ١٨٠/١ .

(٢) سورة العلق : ١٤

(٣) سورة العلق : ١٦

(٤) تفسير البيضاوى ، سورة العلق

ولقد كان حق أبي جهل قد امتد حتى أثار ثائرة نساء بني عبد المطلب ،  
إذ كانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا تخوفت فيها على مكة إذ يبرز  
رجالها إلى مصارعهم بعد ثلاثة أيام ، فقصتها لأخيها العباس ، ثم شاعت الرؤيا  
حتى بلغت أبا جهل ، فقال للعباس : أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ؟  
قد زعمت عاتكة في رؤياها أن من رآته في الرؤيا قد قال : انفروا في ثلاث  
فستربص بكم هذه الثلاث ، فان يكن ما قالت حقا فسيكون ، وإن تمض الثلاث  
ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت في العرب .  
وأنكر العباس حين سمع من أبي جهل هذا القول أن يكون قد سمع من  
عاتكة شيئا ، وكان ذلك من العباس تقية وحرجا ، فلما أمسى الناس لم تبق  
امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس فقالت أأقررتم لهذا الفاسق الخبيث  
أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة  
لشيء مما سمعت !

قال العباس :

فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب ، أرى أن قد  
فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيت ، فوالله إنى لأمشي  
نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به — وكان رجلا حديد الوجه حديد اللسان  
حديد النظر — إذ خرج نحو باب المسجد يشدد .

قال العباس : فقلت في نفسي : ماله ، لعنه الله ! أكل هذا فرقا من أن  
أشأته ؟

قال : وإذا هو قد سمع ما لم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري  
وهو يصرخ بطن الوادي (١) .

(١) تاريخ الطبري : ٤٢٩/٢ .

وإن قصص هذا الرجل لا تنتهى . وهى كلها تدل على غلظته وحمقه وسفاهته  
التي لا تقف عند حد ولا تنتهى إلى نهاية : وقد قيل من هذا القصص أنه — نعه  
الله — مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى . فقال : ألم أنهك ؟ فأغظ  
له رسول الله . فقال : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ! فنزل فيه قوله  
تعالى « فليدع ناديه سندع الزبانية » (١)

ومن أغرب الجهل الذى كان عليه أبوجهل أنه دعا قبل المقاء يوم بدر قائلًا  
اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتانا بما لانعرفه فأحنه الغداة ! فكان جزاؤه أن أهلكه  
الله (٢) وأهلك معه أخاه العاص بن هشام وابن عمهما مسعود بن أبى أمية أيضا (٣)  
وقد قتل الأول عمر بن الخطاب وهو خاله (٤)

وأما عقبة بن أبى معيط فقد دفع فى يد المسلمين أسيرا فأمر رسول الله بقتله .  
فقال عدو الله للرسول : أتقتلنى يا محمد قال : نعم . ثم أقبل رسول الله على  
أصحابه فقال :

« أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على  
عنقى وجعل يغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني تسقطان . ثم مرة أخرى جاء  
بسلا (٥) شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد خلف المقام فجاءت فاطمة فغسلته عن  
رأسى (٦) .

\* \* \*

وعبيدة بن سعيد بن العاص التقي به الزبير بن العوام . وإذا عبيدة مدجج

- 
- (١) جوامع السيرة : ١١٣ .
  - (٢) تفسير الجلالين ، الآية ٦٩ من سورة الأنفال .
  - (٣) جوامع السيرة : ١٤٥ .
  - (٤) الدرر : ١١٨ .
  - (٥) السلا ، على وزن الحضا : المشيمة التى يكون فيها الولد .
  - (٦) الدرر : ١٢١ .

فى السلاح ، لا يرى منه إلا الحدق ، فحمل عليه الزبير بحربته فطعنه فى عينه فمات ، فوضع الزبير رجله على الحربة ثم تمطى واجتهد أن ينزعها فلم يستطع إلا وقد انثنى طرفاها .

واقبى رسول الله حربة الزبير ، ثم توارثها الخلفاء واحدا بعد واحد ، حتى صارت إلى عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل (١)

\* \* \*

حقا لقد أهلك الله هؤلاء وغيرهم من أئمة الكفر ، وهو الذى رماهم ، فلقد أنزل ملائكته يثبتون قلوب المؤمنين حين يلقى الله الرعب فى قلوب المشركين لتنتلق سيوف النبى وأصحابه تحز الأعناق وتبر الأيدى فتطيح الرءوس وتتبعثر الأشلء .

ولقد كان فى قدرة الله سبحانه أن يقي المسلمين مضايق الكرب وأن لا يكبدهم مشقة الجهاد ، وأن يأخذ بناصرهم من غير أن يكافحوا ، ولكن الله أراد لعباده المؤمنين ان يكونوا أقوياء وأن يستندوا إلى عقولهم وتجاربهم ، وأن يعرفوا سنة الله التى لا تبدل وفطرة الحياة التى لا تتغير - ولا سيما إذا لم يكن معهم الرسل الذين ينصرون بالعجزات - فيأخذوا بالأسباب من حيث لا ينسون الاعتماد عليه والتبطل إليه ، لأن بيده وحده المعونة على الخير ، وبمشيئته وحده تتمحق نتائج الأسباب .

ولم يجعل الله من منطق الحياة أن يتحقق الظفر والانتصار لمن لم تتوافر لديهم الأسباب ، ولا لمن يجاهدوا ، فنضيق بهم الأيام وتنفرج ، وتحيق الكروب وتنكشف ، حتى يتعودوا الصبر ويبدلوا غاية ما عندهم من تفكير وتدبير .

ولو أننا وازنا بين ما قاله أصحاب الرسول صلوات الله عليه وهم فى وادى

(١) زاد المعاد ج٢ ص ٩٠ .

ذفران قبل المعركة التي فاجأتهم بما قاله بنو إسرائيل لموسى عليه السلام حينما طلب منهم أن يجاهدوا ليدخلوا أرض الحثيين ، لو وازنا بين أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء لوجدنا بونا واسع المدى بين الايمان والتخاذل ، وبين صحابة رسول الله وبنى إسرائيل ، وهو ما لم يفت أصحاب رسول الله أن يذكروه له وهو خارج من المدينة قاصدا لقاء العير .

ولقد جرى المنطق في الحالين على سجيته ، فلزم النبي أصحابه ورق لهم واستغاث من أجلهم حين أطاعوه ، أما موسى فحين خالفوه وعصوه فانه دعا الله أن يفرق بينه وبينهم ، فأوقعهم الله في التيه ، وطيب قلب نبيه واستجاب له ، وفي ذلك يقول سبحانه « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » (١) .

أما المسلمون فقد أخذوا بأسباب الجهاد ، ولم يتخلفوا عن النبي ، وهم يعلمون بما كانوا عليه من الضعف والقلّة في بدر ولكنهم لم يبالوا بها لثقتهم في وعد الله وطاعتهم لرسوله الكريم .

\* \* \*

ولقد كان فضيل الله على رسوله وقومه في بدر بأن أعانهم بألف من الملائكة مردفين ، حين طلب الرسول واستغاث ، ثم أتبعهم الله بثلاثة آلاف منزلين ، فهانت المعركة على المسلمين وفعّلوا بأعدائهم ما شاءوا وكانهم كانوا لاعبين . ولو كان الكرب ضاق بهم وعاجلهم المشركون ظلما وبغيا لأعانهم الله بما ينصرهم من ملائكة بالغة ما بلغت أعدادهم ، وإن الله ليمن على المسلمين بذلك فيقول :

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٦ .

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعالمكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم» (١)

ولو أننا نظرنا إلى الآية الكريمة نظرة فاحصة لتبين لنا من نظمها ما يدل على شمول علم القرآن بفن ( التكتيك ) الحربى إذ الآية الكريمة توحى إلى قائد المعركة أن لا يلقى بكل رجاله مرة واحدة فى المعركة مهما كانت قوتهم وحتى لو كانوا ملائكة .

بل يرسل إلى المعركة القوة الكافية عند البداية ، ثم يحتفظ عنده بالاحتياطى لها ، ليكون هذا الاحتياطى معدا ليقذف به فى المعركة إذا طابت المعركة الامداد ولا يلقى بثقل الجيش كله إلا فى الخطوب الشداد .

والمؤمنون يعلمون أن كلمة « كن » من الله ومجرد توجه الإرادة إلى ما يريد أن يكون فانما هو كاف لأن يتحقق الكائن الذى يريده الله .

ولكن هذا التنسيق فى فضل الله إنما كان تعليما ليوزع المؤمنون طاقاتهم البشرية بمثل ما يتعلمون منه . ولن يزال البشر فى حاجة دائمة إلى تعليم :

وحتى الآية الأولى التى ختمت بقوله تعالى : « بألف من الملائكة مردفين » قيل فيها إنهم يرادف بعضهم بعضا ، أى أرسالا ، جماعة بعد جماعة ، فلم يأتوا دفعة واحدة .

والإمداد بألف يتفق فيه كل المفسرين ، أما ما جاء بعده فقد اختلفوا فيه : أكان فى بدر أم كان فى أحد من بعد ، ثم قالوا إنه كان فى الأخيرة موقوفا على شرط الصبر والتقوى .

(١) سورة الانفال : الآية ١٠



ولعل من أجود ما قيل ، قول ابن القيم :

إن التدرّج في الإمداد ومتابعته أحسن موقعا وأقوى للنفوس وأبهج لها من أن يأتي مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة : وهذا كله إن كانت الآيات في بدر .

على أنه قد روى عن ابن عباس : أن الملائكة لم تقاتل في يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون . وتكون هذه حينئذ إحدى خصائص بدر الكبرى (١) : فضلها على كل الغزوات

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٥٤ .





أَهْلُ الْفَلَيْبِ



## أَهْلُ الْقَلْبِ

وفرغ المسلمون من المعركة كلها في بعض اليوم السابع عشر من رمضان أو في معظمه ، حتى إذا انتهت أخذوا يحفرون في الرمال قلبا ويجرون إليه جثث القتلى من المشركين ويرمونها فيه ثم يطمون عليها التراب .

فلما أتموا جرهم إليه وجمعهم فيه ، إلا أمية بن خلف فقد أسرع إليه العفن فانتفخ في درعه حتى ملأها ، فذهبوا إليه ليحركوه فجعل بدنه يتفرق قطعا ، فتركوه وألقوا عليه التراب والحجارة حتى غيوه (١) . وتم بذلك الجرح والجمع والدفن هوان الذين قال الله فيهم :

« الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس » (٢)

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على قتلى القلب ثم قال : « يا أهل القلب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتُموني وصدقتني الناس وخذلتُموني ونصرتني الناس ، وأخرجتُموني وآوانى الناس »

« يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام — واستمر يذكر من في القلب — هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فاني وجدت ما وعدني ربي حقا ؟ ! »

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٥٦ .

(٢) سورة الانفال الآية ٤٧

فقال له بعض أصحابه :

يا رسول الله : أتكلم قوما موتى ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون الجواب ، ولقد علموا أن ما وعدتهم حق « (١) »  
وطالما دعا رسول الله هؤلاء الذين ناداهم إلى أن يسلموا وهو في مكة قبل الهجرة ، وطالما هددتهم آيات القرآن وأنذرهم ، ولم يكونوا يلقونها بغير السخرية والاستهزاء .

وربما كان الغرور يميز لهم أن يستهزئوا ، والنبي في مكة لم يتبعه إلا القليل ، أما وقد رأوا آيات نصره ودلائل انخراطهم ، وظهور أمر النبوة في المدينة والجزيرة كلها فقد كان من أطيّش الطيش أن يقدموا على ما لم يقدموا على مثله والنبي في مكة لم يكن قد علا دينه ، ولم يكن قد أمر أن يمتشق له حساما .

ولقد كان رسول الله دائما يذكر الناس بسابق نذره ليعلموا مصائرهم بما يقولون وما يفعلون ، أهم إلى النجاة أم هم إلى الهلاك ؟ !

ولقد ظن المسلمون حين عاتب النبي أهل القلب بما قال — ظنوا أنهم لا يسمعون أو أن التاريخ لا يرتبط آخره بأوله ، فقالوا له يا رسول الله ، أتنادى قوما أنتنوا ؟ وكان عمر بن الخطاب — كعادته — هو الذى اجترأ فسأل النبي عن ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني »

وهناك شيء آخر من أهم سياسات الميادين في الحرب ، لا يغفل عنه قائد مدرب ولا سياسى حكيم ، وقد أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأول وهلة وعمل له :

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٥٦ — زاد المعاد ج ٢ ص ٩٠ .

ذلك أن المعركة الحربية لا تنتهى آثارها بتناثر الأشلاء في جوانب الميدان . بل يجب أن يستمر العمل في جمع الأشلاء ومواراة الجثث مخافة أن تتعفن فتهب منها ريح تؤذى وتنتشر منها أوبئة وأمراض . ولقد كانت ساحة بدر معرضة لهذه المخاطر كلها ، وكانت مياهها آيلة لا محالة إلى أن تصبح سما زعافا . فأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب القائد الحكيم إلى النهاية حتى يقي أمته من الأمراض والسموم .

فلعل هذه الأمور لم يتنبه لها أهل السير والتاريخ من قبل . وإنما يتنبه لها قائد معركة وراعى أمة ، يظل دائب العمل باحثا عن خير الناس .

~ ~ ~

ولم يمض الأمر هكذا سهلا هينا دون حرج أو شفقة ، فقد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سحب عتبة بن ربيعة إلى القلب ، فاذا أبو حذيفة مهشم بن عتبة قد وقف في الناس وعليه كآبة وحزن ، وكان هذا الابن قد أسلم وفارق أباه وهاجر إلى النبي في المدينة ثم انتظم في سلك المحاربين من أصحابه في بدر فرأى مصرع أبيه .

لقد نظر رسول الله في وجه أبي حذيفة حين اكتأب وتغير ، فقال له : يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من شأن أبيك شيء !

فقال أبو حذيفة : لا والله يابني الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكنى كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجوه أحرزنى ذلك .

ولم يكن كل هذا مافعله أبو حذيفة بن عتبة ، بل إنه لما رآه مصرا على حرب رسول الله ثم رآه في بدر في صفوف المشركين دعا إلى البراز ، ولكنهما لم يلتقيا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك من أبي حذيفة فدعا له  
بخبير وقال له خيرا (١)

ثم كان أشد حرجا من هذا الموقف ما فعله أبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقد  
كان خامس خمسة أسلموا ، كلهم في ساعة واحدة مترادفين قبل دخول النبي دار  
الأرقم ، ثم هاجر أبو عبيدة وشهد مع النبي بدرًا .

وفي المعركة لقي أبو عبيدة أباه عبد الله بن الجراح في صفوف المشركين وتقدم  
كل منهما إلى الآخر يريد قتله ، ولم يلن قلب الأب للدين ولا للبنوة فلم ير الابن إلا  
أن يضرب أباه فضربه ضربة خرمها صريعا (٢)

\* \* \*

وسرعان ما وقعت المدينة ومكة في حالين مختلفين :  
أما المدينة فقد بلغت البشرية بأن الله قد أظفر النبي وصحبه بذات الشوكة  
ليكون النصر مؤزرا خالدا ، وقد بعث رسول الله إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين  
من النصر ببشيرين : هما عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، بعث رسول الله  
أولهما إلى أهل العالية من المدينة ، وبعث ثانيهما إلى أهل الواطئة فيها .  
ولكن اليوم الذى بلغت فيه بشرى النصر إلى المدينة كان مختلطا بحزن وأسى  
— كما هي الحال في الدنيا لا تكون صفوا خالصا أبدا وحتى لأنبيائه — ولعلنا  
نرى الأنبياء أكثر الناس مشقة وابتلاء .

فلقد وافى الخبر المدينة وأصحاب النبي فيها يسوون التراب على رقية بنت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عند عثمان بن عفان ، وكان عثمان قد  
خلفه رسول الله عندها ليرضها ويرعاها .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤ .



وأقبل زيد بن حارثة فوقف في المصلى فغشيه الناس ، وهويقول :

قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبوجهل بن هشام وزمعة بن الأسود  
وأبو البخترى بن هشام وأمّية بن خلف ونييه ومنبه ابنا الحجاج . وكان ابنه  
أسامة بين غاشية الناس فكأنه دهش لما يقول أبوه ، فقال له : ياأبه ، أحق هذا ؟  
قال : نعم والله يا بني . (١)

وكان رسول الله قد أمر فتودى يوم بدر : ألاإنه ليس لأحد من القوم عندى  
منة إلا لأبي البخترى . فمن كان أخذه فليخل سبيله ، وكان رسول الله قد أمنه  
فوجد في القتلى (٢)

وأما مكة فقد كان في الطريق إليها الحيسان بن عبد الله الخزاعى ، وقيل  
عمرو بن جحدم الفهري (٣) ، حتى إذا بلغها - قبل أن يبلغها أحد غيره -  
أخبر أهلها بما أصابهم في زعمائهم وأشرفهم ، فصعق الناس .

\* \* \*

ولم يبلغ الخبر أبا هب وحسب ، بل بلغته النكبة أيضا ، ولم ينجه أنه لم يذهب  
إلى بدر ، ولم يجر إلى القلب . فقد كان الله سبحانه أعد له سورة من النذر  
وحده فلم يكن له من الوعيد نجاة .

ومع أنه لم يخرج مع الناس إلى بدر فلقد عد أحد قتلاها ، ولو لم يخرج ليقاثل  
مع المشركين ، فانه حين بلغه خبر الواقعة التي محقت الكفر واستأصلت أهله أصابته  
الحمى ، فمات منها بعد سبعة أيام ، ولم يكن قد جف على قتلى بدر تراب القلب  
وربما أورد الطبرى في موت أبي هب قصة طريفة تؤثر أن نقلها لطرافتها ،  
قال :

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٣ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٦ .

قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضل — زوجة العباس — وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه .

وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلا ، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا .

قال أبو رافع : وكنت رجلا ضعيفا ، وكنت أعمل القداح ، أنحت في حجرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندى أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يمر رجله بشر ، حتى جلس على طنب الحجر ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال أبو لهب : هلم إلى يابن أخي فعندك الخبر فجلس إليه والناس قيام عليه يسمعون ما يقول :

قال أبو لهب : يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟

فقال أبو سفيان بن الحارث : لا شيء والله ، إن كان إلا لقيناهم فنحنهم أكتافنا يقتلوننا ويأسرون كيف شاءوا ، وإيم الله مع ذلك ما ملت الناس ، لقينا رجلا بيضا على خيل بلقي بين السماء والأرض ، ما تبقى شيئا ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجر بيدي ثم قلت : تلك الملائكة !

قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة ، فتاورته ووثبت عليه ، فاحتملني فضرب بي الأرض ثم بك على يضرني — وكنت رجلا ضعيفا — فقامت أم الفضل — زوجة العباس — إلى عمود من عمد الحجر فأخذته فضربت به ضربة فشجت في رأسه شجة منكرة وقالت له : تستضعفه أن غاب عنه سيده ؟ !

فقام أبو هب موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله عز وجل بالعدسة (١) فقتلته .

ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثا ما يدفنه حتى أنن في بيته — وكانت قريش تنقي العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون — حتى قال لها رجل من قريش :  
ويحكما ، ألا تستحيان أن أباكما قد أنن في بيته لا تغيبانه ؟ !

فقالا : إنا نخشى هذه القرحة .

فقال لها : فانطلقا فأنا معكما . فما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ، ما يمسونه ، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه (٢) وقيل إنهم استأجروا عليه بعض السودان حتى دفنوه (٣)

ولقد كان الله أنزل في أبي هب هذا قوله سبحانه « تبث يدا أبي هب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات هب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد » (٤)

وكان بعض الناس يقول : فاذا آمن أبو هب وامرأته أم جميل فاذا يكون مصير هذه السورة ؟

فلما مات أبو هب وامرأته كافرين آمن بعض من كانوا يترددون في حكم السورة القاطع عليهما بتأييد الكفر والخسران .

\* \* \*

- 
- (١) العدسة : قرحة قاتلة كالطاعون .
  - (٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٦١ .
  - (٣) تفسير البيضاوي سورة المسد .
  - (٤) سورة المسد .

ولم يرجع إلى مكة من المشركين إلا من تهبأ له أن يفر من الضرب أو الأسر  
فعاد إليها فردا جريحا أو ذليلا ، وكان منهم — كما تقدم فى حديث الطبرى عن  
أبي هلب — أبوسفیان بن الحارث بن عبد المطلب الشاعر الذى كان يهاجيه حسان  
ابن ثابت شاعر النبى صلى الله عليه وسلم قديما ثم أسلم أبوسفیان من بعد .  
وكان ممن فر أول من فر من المشركين خالد بن الأعلم الخزاعى وهو الشاعر  
الكذوب الذى كان من شعره قوله فى الجاهلية :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما  
فكان أول من فر يوم بدر ، فلم يقبل حتى يدمى قدمه ولم ينتظر حتى يدمى  
عقبه ، ولكن المسلمين أدركوه فأسروه ، فخاب وخاب ما ادعاه فى شعره من  
كاذب الشجاعة والاقدام (١) .

فلما توافدت أنخبار المعركة والفرار على مكة قامت قريش كلها فى مكة تنوح على  
قتلاها . فلما غابوا فى ذلك وتمادوا سار بعضهم إلى بعض أن يستمسكوا ولا يفعلوا  
فبلغ ذلك محمدا وأصحابه فيشمت بكم بل لا تبعثوا فى فداء أسراكم فى عجلة  
حتى لا يتأبى ويتشدد عليكم محمد فى الفداء . (٢)

وهكذا عادت مكة كلها قليبا مدفونا : فأما الذين قتلوا فى بدر فقد طمروا  
هناك تحت رمالها ، وأما الذين فروا فقد عادوا فى أكفان الذل والعار ، إلا من  
فكر منهم أن يؤمن ، وأما الذين بقوا على كفرهم فيهم فقد أصابهم فوق  
ما أصاب الموتى من المهانة والصغار .

ولم ينج من المعركة إلا نفر رحهم الله من قريش ، كان قد كتب لهم أن  
يسلموا فيما بعد ، وكان منهم حكيم بن حزام ، فقد كان ممن ورد على حوض

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٤١ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٤١ .

المياه في بدر يركب فرسا له اسمها « الوجيه » فهم أصحاب النبي أن يرشقوهم بالنبال ، فقال لهم رسول الله : دعوهم .

فما ورد منهم رجل إلا قتل في يومه ، إلا ما كان من حظ حكيم بن حزام فإنه نجا على فرسه . ثم أسلم قبل فتح مكة وحسن إسلامه ، ثم كان إذا اجتهد في يمينه قال : لا والذي نجانى يوم بدر!





النَّسَائِمُ وَالْأَشْرَى





## الغنائم والأسرى

كان أول ما أحلت الغنائم للأمة الإسلامية في الحرب ما أحل لها من غنائم العير التي غنمها عبد الله بن جحش بعد أن قتل قائدها عمرو بن الحضرمي ، وكان الاختلاف الذي عرفناه من قبل عليها حتى قسمها رسول الله .

والحق إنه ما لم يوضع نظام ثابت يحكم لقسمة الغنائم والأنفال — وقد قيل في بعض الأقوال إن الغنائم والأنفال شيء واحد — فإن الخلجان يسرع إلى صفوف الناس ، لأن الدنيا واقتناء منافعها لم يزل مطلب أكثر النفوس ما لم يتمكن منها الإيمان .

ولقد كان من أحكم الأنظمة وأروع القوانين ما قضى به الإسلام من تحريم الغلول ، وهو أن تمتد يد قائد أو جندي إلى شيء من الغنائم قل أو كثر فيستأثر به لنفسه خلصة ، من قبل أن تجمع الغنائم وتخصى وتقسم طبقا للنظام المفروض ولو لم يوضع مثل هذا النظام لجرؤ الجند وغيرهم على السلب والنهب ، فتنعكس الأمور من إقبال إلى إدبار ومن انتصار إلى انكسار ، ثم يتخذ القدر الزاحف جسوره إلى الهزيمة من أيدي الأنصار حين يعجز أن يصنعها من أيدي العدو والمغير .

وذلك ما حدث في غزوة أحد بعد غزوة بدر ، فلم تستطع شجاعة أكثر المسلمين أن ترد الهزيمة إلى نصر حين اندفع حماة الظهور يحصلون الغنائم

ويجمعونها ، فوقع بهم الكارثة أول ما وقعت ، ثم أصابت من ورائهم بقية الناس .

ولقد حدث أن تهافت الناس على اقتسام الغنائم في سرية عبدالله بن جحش ، ثم اختلفوا على ما حصلوا عليه منها في بدر ، وأراد كل فريق أن يستأثر بها لنفسه ، ولكن رسول الله قسمها أخماساً كما أمره الله ، حيث يكون منها سهم لله ورسوله وأربعة أسهم لمن شهد الحرب أو كان محسوباً أنه شهدا لعذر منعه عن الخروج . أما الغلول فقد نهى عنه القرآن ، وحاسب عليه النبي حساباً شديداً ، ولم يجعل لأحد من الناس ولا لنفسه هو أن يغفل ، مهما كان المال المطموع فيه شيئاً زهيداً ، ومهما كان الطامع شجاعاً مبلياً في الحرب كل البلاء .

ولقد حدث مصعب بن سعد عن أبيه في حديث له قال فيه : « وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فاذا فيها سيف فأخذته فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له : نفلني فأنا من قد علمته . قال : « رده من حيث أخذته » .

فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعطني .

قال : فشد صوته وقال « رده من حيث أخذته » (١)

كما حدث مالك بن ربيعة قال :

أصبت سيف بنى عائذ من مخزوم الذي يسمى المرزبان يوم بدر ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم أقبلت حتى ألقيته في النفل . ثم أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأرقم بن أبي الأرقم حين سأله إياه (٢) .

(١) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ص ١٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٤٢ .

وهكذا بدرت بادرة من بعض المسلمين في غنائم بدر : فاختلفوا فيها قبل أن يقسم بينهم رسول الله :

فقال الشبان : هي لنا لأننا باشرنا القتال .

وقال الشيوخ : كنا ردةً لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفتم إلينا فلا تستأثروا بها .

وقالوا : أرادها خالصة لهم أولئك الذين استبسلوا وأصلوا الأعداء الهزيمة النكراء .

وقالوا : أرادها من أجدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في عريشه لئلا ينال العدو منه غرة .

وقالوا : أرادها الذين استولوا على العسكر والذهب .

وكان الاختلاف هكذا شديداً واسعاً ، ولكن كل فريق من هؤلاء لم يجرؤ على اقتناص شيء منها ، فسألوا رسول الله أن يجعل لهم ذلك وردوا إليه الأمر كله .

ومن هنا لم ينشأ عن الخلاف مشاكل ولا عداوات ما داموا قد أسلموا الأمر لله ورسوله ليقتضي بينهم فيما اختلفوا فيه . وكذلك شأن كل جماعة ترد أمور خلافها إلى قوادها وعقلائها ، فانها تنجو من المطامع والعداوات .

وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه فنزل عليه قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » . (١) ولقد أخبر عبادة بن الصامت — وهو أحد من حضروا بدرًا من نقباء الأنصار — عن غنائم بدر فكان مما قال :

---

(١) الدرر ص ١١٦ — تفسير الجلالين — سورة الأنفال الآية ١

اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله  
فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء . (١)

وكذلك — حين انتهت المعركة وأصبحت ساحة القتال في بدر نقية من  
الأشلاء — جمع رسول الله صفوف أصحابه وحملوا غنائمهم وأسراهم على ما غنموا  
من الأفراس والرواحل ومضوا إلى الصفراء في طريق المدينة حيث يبلغونها  
بعد ثلاثة أيام لتستقبلهم المدينة ظافرين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذها عادة ، فكان إذا ظهر  
على قوم أقام في مكانه ثلاثاً ثم ارتحل (٢) . وهي سياسة حربية أخرى لرسول  
الله ليثبت في أمكنة النصر أقدام المسلمين ، ولا يدع جيئاً ولا مدداً لعدوه  
إلا قضى عليه قبل أن يعود .

حتى إذا بلغ النبي مضيق الصفراء قسم فيها الغنائم بين أصحابه غير خمس الله  
ورسوله ، فلما بلغ الروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من  
المسلمين (٣) . ثم مضى إلى المدينة فدخلها قبل الأسارى الذين ساقوهم يوم (٤) .

\* \* \*

وكما كان الأمر في الغنائم وإحلالها للمسلمين كان أمر الأسرى ، فلم  
يكن لنبي أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض فلما أثخن رسول الله  
في بدر أحل له الأسرى .

وكان عدد الذين أسروا من المشركين سبعين بعدد من قتل منهم ، فاذا  
كان عدد المقاتلين منهم ألفاً — كما قلنا من قبل — تبين أمر مفزع في المعركة

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٤٢ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٤٣ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٦٠ .

وهو أن يفر أكثر من ثمانمائة وخمسين رجلاً ، ويسلم نفسه للأسر سبعون لأن سبعين من الجيش قتلوا أو أصيبوا .

ولعل المؤرخين وأهل السير وكل من اطلع على غزوة بدر لم يختلفوا قط في اعتبارها من المعارك الحاسمة في التاريخ ، إذ أنها برغم القوات القليلة التي اشتركت فيها — حتى من طرف المشركين — فقد كانت فاتحة نصر متابع للمسلمين ، ولم يقف في سبيل نمو الإسلام وازدهاره ما حدث في غزوة أحد من هزيمة مؤقتة لم تلبث أن كانت درساً تعامله المسلمون .

ولم تلبث الوحدة التي أقامها النبي في المدينة أن قويت واشتدت وصارت أنحاء الجزيرة العربية — وفيها مكة المعادية ذاتها — تنضوى تحت لوائها ، ثم كان النصر فيها مقدمة للموجة الإسلامية الدامغة التي غمرت العالم شرقاً وغرباً . حتى بلغت تخوم الصين وشاطئ الأطلسي ثم عبرت أوروبا مع الفتوح .

\* \* \*

ولم يكن سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار قد رضى أن يأخذ المسلمون أسيراً واحداً — حين رأى المسلمين يقرنونهم في الجبال — بل كان يرى أن تضرب أعناقهم جميعاً فلا يفلت منهم أحد .

وكان سعد واقفاً على باب خيمة رسول الله وعريشه متوشحاً بالسيف في ناس من الأنصار وهو يرى المعركة ويرى انصراف بعض المسلمين لجمع الأسرى دون أن يقتلوهم فكره منهم ذلك .

ورأى رسول الله من سعد الكراهية لما يصنعون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كأنك تكره ما يصنع الناس ؟ » .

قال : أجل . والله لى أول وقعة أوقعها الله بالمشركين . وكان الإثنان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال (١) .

ولما استكمل قرن الأسرى بالحبال استشار رسول الله أصحابه فيهم — وكان قد علم رأى سعد بن معاذ أو بالأحرى رأى صاحب راية الأنصار — فلعله أراد رأى المهاجرين .

فأشار عليه اثنان منهم برأين مختلفين : أبوبكر وعمر ، أما الصديق فأشار بأن يأخذ منهم فدية تكون للمسلمين قوة على عدوهم ثم يطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام .

وأما عمر فقد قال : لا ، والله ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فان هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانب الرقيق وأخذ بما قال أبو بكر ، ولم يهو قول عمر ، فكان رحمة هؤلاء الأسارى الذين أسلم منهم من أسلم من بعد ، وكانت من أصلا به ذرية من المسلمين . (٢)

بل لقد كان يود لو من عليهم فقال :

« لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء لتركتهم له » (٣)  
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة قد دخلها فى جوار المطعم بن عدى حين آذنه ثقيف .

ثم بدأت فى معاملة الأسرى منذ بدر سياسة الحسنى : وقد قالوا إنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : « أحسن إليه »

- 
- (١) زاد المعاد ج٢ ص ٨٩ .
  - (٢) زاد المعاد ج٢ ص ٦٧ .
  - (٣) المرجع نفسه ٦٦ .

وفي حديث له صلى الله عليه وسلم «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك»  
وهكذا تعلم المسلمون أن لا يطغيهم النصر حتى على أعدائهم بل يعاملونهم  
بالحسنى ، فلعل الله يهديهم إلى الإيمان فيخرجوا مما هم فيه .  
وقد عومل لذلك أسرى بدر كلهم بالحسنى سوى اثنين أو ثلاثة (١) كانوا  
من جبابرة الكفر ، ولم يكن فيهم أمل في أن يتوبوا . .  
أما الاثنان فهما :

النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار وعقبة بن أبي معيط  
ابن عمر بن أمية بن عبد شمس ، فقد ضرب عنقهما . (٢)  
أما عقبة فقد كان قديما في مكة قد عمد إلى مكمل (٣) مملوء قدراً ثم ألقاه  
على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به طليب بن أروى بنت عبد المطلب  
فأخذ منه المكمل وضرب به رأسه فأمسك به عقبة وساقه إلى أروى بنت  
عبد المطلب أم طليب وجعل يشكو ابنها لها ، فقالت له : ومن أولى منه بذلك ؟  
هو ابن خالته ، أموالنا وأنفسنا دون محمد .

فلما كان يوم بدر جاء به عبد المطلب بن سلمة الأنصاري أسيراً كان قد جمع  
به فرسه فأخذه عبد الله أخذا سهلاً ، فأمر رسول الله بضرب عنقه ، فذلل عقبة  
حينئذ وتباكى وقال : يا محمد ، علام أقتل من بين هؤلاء ؟  
فقال رسول الله « لعداوتك لله ورسوله »

- 
- (١) أنساب الأشراف ج١ ص ١٤٨ .  
(٢) جوامع السيرة ص ١١٤ - الدرر ص ١١٥ - أنساب الأشراف ج١ ص ١٤٧ .  
(٣) المكمل : المسمى بالزنبيل ويعمل من الخوص .

قال : يا محمد . من للصبيّة ؟

فقال : « النار »

ثم أمر به رسول الله فصلب ، فكان أول مصلوب في الإسلام (١)  
وأما النضر فكان من أشد الناس مبادأة للنبي بالكذب والإيذاء ، وكان  
صاحب أحاديث يدعى أنها أحسن مما جاء به محمد من القرآن ، قد نظر في كتب  
الفرس وأقاصيصها لأنه كان يأتي ناحية الحيرة فيشتري كتب الأعاجم . ويعود  
بعد أن يقرأها ويترجم ما فيها فيحدث بها أهل مكة ، ثم زاد فخالط اليهود  
والنصارى وأخذ يحدث بأحاديث هؤلاء ثم يقول :

أينا أحسن حديثاً ؟ أنا أم محمد ؟ ويقول : إنما يأتيكم محمد بالأساطير :  
فأنزل الله فيه قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل  
هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » (٢)

ثم لقي النضر محمداً صلى الله عليه وسلم ذات مرة فقال : أنت الذي تزعم  
أنك ستوقع بقريش عن قليل ، وأن الله قد أوحى إليك بذلك ؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم ، وأنت منهم » .

بل كان النضر متهمكاً مستهزئاً دائماً بالنذر في مكة ويقول « إن كان هذا هو  
الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » (٣) فأنزل الله سبحانه فيه قوله :  
« وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (٤) .

(١) أنساب الأشراف : ١ ص ١٤٨ .

(٢) سورة الأنفال ٣١

(٣) سورة الأنفال الآية ٣٢ — أسباب النزول بهامش الجلالين ٢ ص ١١٦

(٤) سورة الأعراف ١٨٥



ثم جاء النضر يحارب النبي في بدر فأسره المقداد بن عمرو وأمر رسول الله  
بضرب عنقه صبورا بالأثيل (١)

ولقد كان للنضر هذا بنت شاعرة يقال لها قتيلة ، فلما قتل أبوها كتبت  
شعرا وأرسلته أو أنشدته بين يدي رسول الله في أبيها فكان مما قالت :

أحمد ياخير ضنء كريمة من قومها والفحل فحل معرق  
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ الحق  
والنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق  
فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شعرها قال :

« أما إنى لو سمعت هذا قبل قتله لم أقتله » (٢)

هذا ، وقد أحسن الدكتور شوقي ضيف في التعليق على عتاب قتيلة هذا  
ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حين قال :

وليس معناه الندم ، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يقول ولا يفعل إلا حقا ،  
ولكن معناه :

لو شفعت عندى بهذا القول لقبلت شفاعتها . وفيه تنبيه على حق الشفاعة  
والضراعة . ولا سيما الاستعطاف بالشعر ، فان مكارم الأخلاق تقتضى إجازة  
الشاعر وتبليغه قصده (٣) .

فهذا تعليق مقبول ، إلا أننا نستأنف عليه فنقول إن مكارم الأخلاق  
تقتضى أحيانا أن لا يبلغ الشفيع الضارع كل ما يقصده ويرجوه ، وإنما يصرف  
عنه بما يرضيه . ولا سيما إذا كانت قد جرت المقادير من قبل استشفاعه بما  
لا يمكن رده ولا العدول عنه ، وهو ما كان قد حدث في النضر بن الحارث .

(١) أنساب الأشراف ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) الدرر ص ١١٥ .

(٣) انظر التعليق في ذيل الكتاب السابق نفسه والصفحة نفسها :



## سِيَّاسَةُ الْفِدَاءِ

ولقد فرض الفداء على أسرى غزوة بدر من المشركين ، وكان الفداء أنواعا :

فمن كان عنده مال فدى به فاداه على النور إن كان قد حمله معه ولم يسلب منه في المعركة إذ يصير السلب حقا للمعركة لا فداء للأسير .

ومن لم يكن عنده مال أو كان عنده وهو يعرف الخط والكتابة فقد كان فداؤه أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الخط والكتابة ، فاذا تعلموها وحذقوها أطلق فرجع إلى مكة إن لم يدخل الإسلام .

ومن لم يكن عنده مال ولا علم بالكتابة فقد من عليه رسول الله بأن يطلق إذا أراد أن يعود إلى أهله بمكة .

وقد قيل أن رسول الله لم يطلق بغير فداء إلا واحدا أو اثنين ، وقالوا إن أحدهما هو أبو عزة الشاعر ، كان قد وقع أسيرا في هذا اليوم ثم من عليه رسول الله فأطلقه بعد أن أخذ عليه عهدا أن لا يعين عليه .

وانطلق أبو عزة إلى قومه ، ولكنه نقض العهد الذي أخذ عليه ، فأوقعه الله في الأسر يوم أحد فضرب عنقه صبرا ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمدا مرتين . (١)

(١) جوامع السيرة ص ١٧٤ .

ثم اختلفوا في ثانيهما ، ويرجح الواقدي أنه سهيل بن بيضاء ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : « إلا سهيل بن بيضاء » فأثنى سهيل مكة منصرفا من بدر ثم هاجر إلى المدينة من بعد (١) وقد أخذ الفداء من مال وكتابة من ثمانية وستين رجلا (٢) ، أما المان فقد جعله رسول الله من ألف درهم إلى أربعة آلاف ، وكل منهم على قدر يساره ، فكان ممن فدى بأربعة آلاف رجل يقال له : أبو وداعة بن ضيرة السهمي ، كان له ابن تاجر كيس ذو مال اسمه المطلب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . « إن له ابنا تاجرا كيسا ذا مال ، وكأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه » .

فلما علمت قريش بما فرض النبي من الفداء قالت : لا تعجلوا في فداء أسراكم ، فأظهر المطلب بن أبي وداعة عن رضاه بما قالت قريش ، ولكنه قلق على أبيه فأنسل من مكة في الليل — أول متسلل — وقدم المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم ثم انطلق به .

ومن ثم أخذت قريش تبعث في فداء الأسرى لما لم تجد من ذلك محيصا (٣) فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو .

وكان سهيل — صاحب التاريخ المشهور ، في الحديبية من بعد قبل أن يسلم — من أسرى بدر ، وكان خطيبا طالما قام ضد النبي بلسانه فجاء في فدائه مكرز بن حفص . وكان عمر بن الخطاب قد أشار على النبي فيه أن تنزع ثيئته السفليتان ليدلح لسانه فلا يقوم على النبي خطيبا في موطن أبدا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر :

- 
- (١) أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٢٦ .
  - (٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦ .
  - (٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٦٤ .

« لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا » (١)

ومع كل ذلك الذى رآه سهيل من رافة رسول الله به فقد ظل من أعدائه والمعينين عليه حتى فتح مكة . ثم أسلم ، فصدمت نبوءة رسول الله فيه . وكان مع سهيل فى بدر ابنه عبد الله فلما التقى الجمعان فر الابن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم قبل أبيه (٢)

ثم كان من الأسرى الأغنياء العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، أسره أنصارى اسمه أبو اليسر كعب بن عمرو من بنى غنم (٣) وأسر معه من بنى هاشم اثنين آخرين هما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث من بنى المطلب ، فأمره النبي أن يدفع الفداء لنفسه ولابنى أخويه : عقيل ونوفل من ماله ، ثم يدفع أيضا فداء حليف لهما من بنى سهم اسمه عتبة بن عمرو ابن جحدم .

ووقف العباس حين طلب إليه رسول الله ذلك كله فأبى وقال : إني كنت مسلما قبل ذلك ، وإنما استكروهونى !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بشأئك . إن يك ماتدعى حقا فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك » فافتدى العباس نفسه بسبعين أوقية أو مائة من الذهب ، وافتدى ابنى أخويه بسبعين . ثم أعلن العباس إسلامه : أو كان مسلما — كما قال — ورجع إلى مكة وهو يكتّم أنه أسلم لأمواله التى كانت له عند الناس (٤)

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٢) جوامع السيرة ص ١٢١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٨ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٦ — سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٦٠ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرف أن العباس قد حمل معه  
عشرين أوقية من الذهب يستعين بها ، فوقع السلب عليها وغنمها المسلمون  
منه فقال لرسول الله : أحسبها من فدائي .

فقال رسول الله : « لا : ذاك شيء أعطانا الله منك »

قال : فاني ليس لي مال .

فقال له رسول الله : فأين المال الذي وضعته بمكة عند امرأتك  
أم الفضل ، وليس معكما أحد غيركما ؟ فقلت : إن أصبت في سفري فالفضل  
كذا ولقمتُ كذا ولعبد الله كذا .

قال العباس : فوالذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيرها :  
وإني لأعلم أنك رسول الله .

ولقد كان الأسر قد فشا في قريش وعم كل بيوتها ، كما كان القتل قد  
فشا فيها وعم كل البيوت . (١)

\* \* \*

ولم يكن هذا الفداء بالمال طمعا من الإسلام في الأموال — وإن كان  
أبو بكر رضي الله عنه رأى أنه يكون قوة للمسلمين ، فان رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بعد أن فتح مكة قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم  
دورهم التي استولى عليها المشركون ، فلم يرد على أحد منهم داره .

وما ذلك إلا لأنهم تركوها لله وخرجوا عنها ابتغاء مرضاته ، فأعاضهم  
عنها دورا خيرا منها في الجنة ، فليس لهم أن يرجعوا فيما تركوه لله .

ويقول ابن القيم :

---

(١) 'جوامع السيرة ص ١٤٧ .

بل أبلغ من ذلك أنه لم يرخص لأحد من المهاجرين أن يقيم بمكة بعد نسكه — في عمرة أو حجة أكثر من ثلاث ، لأنه قد ترك بلده لله وهاجر منه فليس له أن يعود يستوطنه . ولهذا رثى رسول الله لسعد بن خولة — وسماه بائسا — أن مات بمكة ، وقد دفن بها بعد هجرته منها (١) فقال صلى الله عليه وسلم :

« لكن البائس سعد بن خولة »

قدر رثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة (٢)

\* \* \*

ولم تكن النتائج الحربية والاقتصادية هي كل ما فعلته غزوة بدر ، بل حدثت معها نتائج علمية وثقافية ربما كانت أكثر أهمية وأعظم قيمة ، وهي نتائج تعتبر من أكبر الفرائد التي حدثت في غزوة من الغزوات .

فقد اشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة الفداء ، فن قدر عليه من أسرى قريش من الأغنياء افتدى به ، ومن لم يقدر وكان يعرف الخط والكتابة فعليه أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين ، فاذا وثق النبي من أنهم تعلموا أطلقه من الإسار .

وكان أهل مكة قد علمهم التجارة أن يكتبوا وأن يحدقوا فيها ، وأما أهل المدينة فلانعزلهم عن التجارة فقد كانوا لا يكتبون ، إنما كان يكتب يهودهم ويهتمون بالعبرانية دون العربية .

ولعلها مرة فريدة كان تعليم الخط والكتابة فيها من غنائم الحروب ، وهي شهادة للإسلام من ناحيتين :

(١) زاد المعاد ج٢ ص ٦٨

(٢) الإصابة ج٢ ص ٢٣

أولاهما أنه يهتم بالخط والكتابة ويعرف لهما قيمتهما ، ولم يقتصر الإسلام على الحث النظري عليهما بل جعلهما في نطاق العمل والتنفيذ .

وثانيهما أنه جعل الخط والكتابة في نظير المال الذي يفتدى به الأسير ، فهما بذلك يعدان من أسباب الغنى .

ولقد بدأ الإسلام — أول بدئه على الإطلاق — بالقراءة والكتابة في آيات سورة العلق الأولى « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) فكان ذلك إيذانا للعرب بانتقالهم إلى الكمال وإعلانا دينيا عاما إلى الدخول في دور جديد ذي تيار جارف يخلق في شواطئ الحياة مدا عاليا من العلم الخالد ، ويحضر دائما على الترقى في مراتبه والثوسع في نواحيه .

وكان هذا الإعلان الديني أشبه بالأذان الذي ارتفع من هذا المكان نفسه من أنبياء إبراهيم عليه السلام يدعو الناس لحج البيت . وإذن فقد بدأت مرتبة الإسلام بمرحلة الإنسان الكامل الذي جعل صفة الكمال قاعدته الأولى التي بنى عليها .

ولم يكن الأمر بالقراءة لإدراك صور الحروف وتصور رسوم أبجديتها ، فقد لا يأتي ذلك بغير معرفة شكلية تافهة دل عليها أنف أعرابي موهوب دفعوه في زمن عمر بن الخطاب ليتعلمها ففر منها هاربا .

وربما كان هذا في البداية تقريرا قوليا للكتابة أو القراءة ، ثم ما لبث النبي صلى الله عليه وسلم أن نفذه من فوره تنفيذا عمليا ، إذ اتخذ له عددا من الكتاب يكتبون الوحي ويدونون القرآن ويستملون منه الكتب . ثم ما لبث الإسلام أن وضع هذا العمل وضعا مساويا للحرية التي هي أعظم أقدار الحياة .

---

(١) سورة العلق الآيات الأولى



وقد تحقق هذا في بدر من ناحيتين :

تحقق أولا في فداء الأسير من أهل مكة — إن لم يكن نه ما — إذا علم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة . فكأن محو الأمية قد اشترى بالحرية والإطلاق .

وتحقق ثانيا في محو جهالة الحر الذي تزيده الكتابة حرية وإطلاق ، وهو تقدير يزن الحصول على العلم وأدائه من الخط والكتابة بأنه مساو للحرية والحفاظ عليها والانطلاق بها . وهو أعلى من أوزان الغنائم المادية كلها .

وقد مضى الإسلام في تحقيق هذه المعادلة مؤكدا اقتران العلم والحرية والسلطان بحيث ينال المتعلم من مراتب الحريات ودرجات السلطان ما يتساوى مع درجة علمه وفقهه .

وجعل الإسلام جزاء من تعالى في درجات العلم أن يعتق لو كان عبدا . وأن يكون إماما ولو كان أعجميا .

وقد تأثر السادة الأولون بهذا الروح في إعتاق مواليتهم الذين يفك الفقه والعلم رقابهم ، واتسعت حلقة السباق . فما كادت الطبقة الأولى من الصحابة تغيب حتى تولى الموالى المعتقون في كل البلدان مراتب الفقه والفتوى .

• • •

ولا نستطيع أن ندع هذا الفصل من سياسة الفداء دون أن نتحدث في أمر جليل نتج عن تعلم الخط والكتابة من أسرى بدر ، وذلك هو أن زيد بن ثابت كان أحد الغلمان الذين تعلموا الخط والكتابة في هذا الفداء . (١)

ثم كتب زيد الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أمره النبي أن يتعلم من المدينة العبرانية أو السريانية فتعلمها في سبعة عشر يوما . وقد كانوا جاءوا

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٢

النبي يزيد عند مقدمه إلى المدينة فقالوا : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأها زيد على النبي صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك .

وبخط زيد هذا وقراءته كتب مصحف حفصة في عهد أبي بكر ثم بخطه هو وقراءته كتب المصحف الإمام في عهد عثمان بن عفان ، وجمعت عليه الأمة ، ولم يعد من الخطوط التي كتب بها القرآن أجزاء من قبل مصحف واحد ، فامتازت الأمة الإسلامية بذلك الاجتماع على كتابها وخطه ورسمه وقراءته ، وصدق قول الله سبحانه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . (١)

وهكذا كانت غنائم بدر تكاد لا تحصى منفعة ولا تحصر في زمن ، فإذا كان المال الذي قبضه المسلمون في الفداء قد أنفق في إبان عهد النبي ، فقد عاد بالقوة والنماء على الإسلام ، فأمكنه أن يصبر على الزمن وينتشر على مدى الأيام .  
أما هذا الفن من الكتابة والذي بدأ من فداء أسرى قريش في الواقعة . فقد كان أثره أبلغ من كل كسب وأعظم من كل قوة ، إذ تعلم زيد بن ثابت الخط العربي الذي دون به القرآن فيما بعد .

ومع أن القرآن بكتابة زيد باق إلى القيامة ، فكذلك رزق الخط العربي لنفسه قوة لم يكن ليحصل عليها لو ظل لغة للحساب والأرقام دون أن يتناول الأفكار العالية وفنون الكلام .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .



يَقْطَعُ السَّارَ



# يَقْظَةُ السَّارِ

منذ أعز الله نبيه والمسلمين في بدر . وقتل من قتل . وأسر وفدى من  
أسر وفدى — خافه كل عدو بالمدينة وحوّلها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ،  
ودخل عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه في الإسلام ظاهرا . (١)

وبلغ خبر الواقعة العرب في أطراف الجزيرة العربية كلها وفي خارجها  
فحميت بذلك النخوة العربية في كل مكان ، وصار للعرب — حتى ولو لم يكونوا  
قد أسلموا — عزة وافتخاراً .

ولقد حميت بهذا الانتصار قبائل ربيعة التي كانت تعادى الفرس فحاربت  
كسرى والتحم العرب والعجم في وقعة ذي قار ، وتنادى العرب في الواقعة  
قائلين :

عليكم بشعار التهامي ! فكان نداؤهم : يا محمد ... يا محمد ... فهزموا  
جيوش كسرى وقتلواهم .

وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما حدث في هذه الواقعة فقال :  
« اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبني نصرنا »  
وكان يوم ذي قار بعد وقعة بدر بأربعة أشهر أو خمسة لا غير . (٢)

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٠

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦

ولكن ما كادت فلول قريش تنصرف من بدر مدحورة أشد الاندحار  
ورآها أبو سفيان أمير العير وكان قد دخل مكة بقافلته ثم علم ما حدث في بدر -  
ما كاد يبلغه ذلك حتى أقسم أن يغزوا المدينة نفسها ليثأر منها .  
ولقد نذر أبو سفيان أن لا يمسه رأسه ماء حتى يغزو محمدا (١) ، ثم جعل  
يعد لذلك الغزو مدة شهرين .

ثم خرج في مائتي راكب وحمل معه أزواداً كثيرة وسويقاً كثيراً ، ثم سار  
بهم قاصدا المدينة ، فلما بلغ مكانا في طرفها يقال له «العريض» (٢) نزل فحرق  
جماعة من صغار النخل لأهل المدينة لم يكن عندها أحد ، ثم وجد رجلا يقال له  
« معبد بن عمرو » ومعه أجير له يعملان في حرث لهما فقتلتهما وحرق أبياتا  
هناك وأشعل النار في التبن ، ثم رأى أن يمينه قد حلت فكر راجعا عن المدينة ،  
ولعلها لم تكن مسألة يمين يفي بها ، بل كانت مظهرا أمام أهل مكة يعذر به  
أبو سفيان ، أو لعله كان قد علم أن المدينة قد تجهزت للخروج إليه مسرعة  
فأسرع في النكوص ، فان مثل أبي سفيان لا يعود إلا وقد حذر ما يكون .

وما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغه الصريخ حتى نفر من المدينة  
ومعه عدد هائل من المسلمين ليلقوا ركب أبي سفيان أو يلحقوا به . ولو بلغهم  
الخبر في إبان خروج أبي سفيان من مكة لم يبق لهذا الركب أثر ، ولكن الله أبقى  
لأمر عنده ، فكان أبو سفيان في فراره أسرع من خطو المسلمين نحوه فنجا .  
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه حتى بلغ مكانا يقال له  
« قرقرة الكدر » (٣) وكان أبو سفيان قد فاته هو والمشركون الذين معه ،  
فوقف عنده رسول الله .

(١) زاد المعاد ج٢ ص ٩٠

(٢) العريض تصغير عرض واد بالمدينة - معجم البلدان في العريض .

(٣) قرقرة القدر ويقال قرارة الكدر موضع بينه وبين المدينة ثمانية برد

- معجم البلدان في قرر - الطبقات الكبرى ج٢ ص ٣١

ولم يعد المسلمون من هذه الغزوة بغير غنائم ، فان المشركين — حين علموا بخروج المسلمين وجدهم في طلبهم — قد طرحوا عن أحلامهم كثيرا من السويق (١) الذي كان في أزوادهم يريدون أن يتخففوا من أحلامهم ليساعدتهم ذلك على الهرب والسرعة فيه . فأخذها المسلمون وعادوا بها إلى المدينة فسميت الغزوة بذلك : « غزوة السويق » وكانت في السنة الثانية من ذى الحجة بعد بدر بشهرين وبضعة أيام .

ومن ثم لم تبق هدنة بين قريش والمسلمين ، فجعل رسول الله يغزو حلفاءها الضاربين قريبا من المدينة ويتعقب قريشا فغزا « بحران » بالحجاز ، وهو المكان الذي كان قد أضل عنده سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما — وقد تقدم تحديده عند كلامنا على « مفترق الطريق » .

وكان خروج النبي إلى بحران لما بلغه أن جمعا من بني سليم بن منصور قد تجمعوا فيها ، فخرج في ثلثمائة من أصحابه ، ولم يذكر أين يريد — كما صارت عادة حربية يتبعها في كل حروبه من بعد — فلما صار ببهران وجد المتجمعين قد تفرقوا ورجعوا إلى مياههم فانصرف إلى المدينة ، دون أن يلقي كيذا أو حربا ، وقد كان خروجه هذا في أخريات ربيع الآخر وأوائل جمادى الأولى من السنة الثالثة. (٢)

\* \* \*

ثم عن لمشركى مكة بعد تقلب الأمور وبعد أن أوقع الله بهم يوم بدر واستأصل وجوههم — رأوا أن يتآمروا بالمهاجرين من المسلمين إلى أرض الحبشة

---

(١) السويق : الدقيق في الجرب جمع جراب \*  
(٢) زاد المعاد ج٢ ص ٩٠ — جوامع السيرة ص ١٥٣ — انساب الأشراف ج١ ص ٣١١ \*

فيرسلوا بعثا إلى النجاشي ليوغروا صدره عليهم فيدفعهم إليهم فيقتلوهم بمن قتل منهم في بدر .

ولكن كان على قريش وهي تختاربعثا سياسيا للنجاشي الذي احتضن المسلمين في أرضه أن تلجأ إلى أدهى الناس في القول والدخول والاحتياي ولا سيما وهي تعلم أن ذلك النجاشي لم تكن تخدعه الحيلة ، فاستقر رأيها على اختيار رجلين منهم هما : عمرو بن العاص بن وائل وعبد الله بن أبي ربيعة أو عمار بن الوليد . وسار الرجلان ومعهما هدايا ثمينة تليق بملك الحبشة ، وهدايا أخرى تليق بالبطارقة الذين رأت قريش أن يكونوا المدخل إلى قلب النجاشي .

وكان من أعجب ما يحبه النجاشي ويرغب فيه مما كان يأتيه من بلاد العرب الأدم ، فجمعوا له صنوفا كثيرة غالية منه ، ولم يتركوا من البطارقة الأحباش أحدا إلا حملوا إليه ، إذ رأى عمرو وصاحبه — حتى تنسبك الحيلة — أن يدخلوا على الملك عن طريق رجال الدين .

وقد قيل إن عمرو بن العاص بعثته قريش إلى النجاشي مرتين ، مرة مع ابن أبي ربيعة ومرة مع عمار بن الوليد — وعمار بن الوليد هذا هو الذي كانت قريش تريد أن يأخذه أبو طالب ويعطيهم محمدا مكانه في أول الدعوة الإسلامية فلم يرض أبو طالب سفاهة قريش ، وأبى أن يأخذ منهم رجلا ليربيه لهم ثم يأخذوا ابن أخيه ليقتلوه . (١)

ومنذ وصل البعث إلى أرض الحبشة بدأ بالدس لدى البطارقة فقال الرجلان لهم :

إنه قد لجأ إلى بلدكم غلمان منا سفهاء ، خالفوا دين قومهم ، ثم لا هم بقوا عليه ولا هم دخلوا في دينكم . أما ما جاءوا به فانه دين مبتدع لا نعرفه نحن ولا

---

(١) أبو طالب ص ٦١



أنتم ، وقد بعثنا أشراف قومنا إلى الملك لنكلمه فيهم ، فاذا حدثكم في الأمر فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا . فوافقهما البطارقة على ما أَراداه .

ثم قدما على الملك بالهدايا فقدمها إلى فقبل منهما ، فلما حان لهما أن يفتحا الملك فيما جاء من أجله كلماه في حضرة البطارقة ، فجعل البطارقة يؤيدونهم فيما يقولونه ، ويشيرون على الملك أن يسلم إليهم المهاجرين ليرجعوا بهم إلى مكة . وكان ذلك النجاشي علي خلق عربي من الشهامة والحفاظ على الحار ، فقد قالوا إنه كان أميرا لاجئا في بني مرة هاربا من أهله في صباه ، ثم عاد إلى الحبيشة وتولى أمرها ، فأثرت فيه إقامته بين العرب فكان حاميا لجاره .

ثم كان النجاشي مسيحيا ملكانيا ، وهم الذين يقولون قول المسلمين من أن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ونبه . (١)

فحين سَمِعَ كلام عمرو بن العاص وصاحبه ومشورة البطارقة غضب وقال : لا أسلم قوما اختاروا جوارى على من سواى ونزلوا بلادى دون غيرها ، حتى أعلم عن يقين حقيقة أمرهم ، فاما رددتهم إلى قومهم وإما أحسنت جوارهم طالما رغبوا في جوارى .

وأرسل النجاشي إلى المسلمين ، فاجتمعوا جميعا في مجلسه مع حاشيته وبطارقته وجعل بعث قريش بين يديه ، ثم دار حوار بين النجاشي وبين المهاجرين إليه ، وتولى الكلام جعفر بن أبى طالب — وكان رضى الله عنه على بينة من الإسلام وفقه فيه — فأوضح في صراحة وصدق إيمان مبادئ التوحيد التي جاء بها الإسلام وكأنا أَلهم الله كلامه أن يؤثر في قلب كل من يصنى إليه ، فرضى النجاشي ما أوضحه جعفر ، واقتنع منهم برأى الإسلام في بشرية الأنبياء — وقد كان ملكانيا — ثم نظر إلى حاشيته وأمرهم برد الهدايا إلى بعث قريش .

---

(١) تفسير البيضاوى لسورة مريم .

قال جعفر بن أبي طالب :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأثى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ إلى الجار ويأكل القوى منا الضعيف .  
كنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات .

وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .  
ثم جعل جعفر يعدد الفضائل التي جاء بها الصادق المبعوث ثم قال :  
فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله عز وجل ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما حلل لنا .  
فعدا علينا قوما فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك وآثرتك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

وعندما انتهى جعفر من مقالته بين يدي النجاشي كان الملك قد تأثر وبلغ به تأثره أن طلب من جعفر أن يسمعه شيئا مما جاء به النبي ، فأخذ جعفر يتلو عليه سورة مريم .

وما أن مضى جعفر في تلاوتها حتى بكى النجاشي وبكت أساقفته فلما انتهى جعفر من تلاوته قال النجاشي لعمره وصاحبه : انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا .

إلا أن عمرًا لم تفرغ حيله فقد بقيت لديه دسيمة أخرى ، فشاور صاحبه فيها فأبى عليه ، ولكنه جاء الملك بها من الغد ، ولكن الدسيمة لم تفلح أيضا لأن اعتقاد الملك وافق فيها اعتقاد المسلمين .

وقد أخبرت بذلك الذى حدث كله فى الحبشة وبين يدي النجاشي أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها كانت من مهاجرة الحبشة وقد حضرت هذه المأساة (١) .

\* \* \*

كان هذا البعث فى الحبشة وقريش تستعد للأخذ بثأرها ، فلما باء البعث بالخبيبة أرادت قريش أن تعوضه فضاغت استعدادها وجعلت تستمد حلفائها . وكان من هؤلاء الحلفاء جماعة من العرب يقال لهم «أحاييش قريش» كانوا ينزلون عند جبل بأسفل مكة من بنى كنانة .

فخرج هؤلاء مع قريش وخرجوا مع نساءهم لثلايفروا . وحتى بنو زهرة الذين لم يخرجوا فى بدر خرج منهم رجال هذه المرة مع قريش ، وكان ذلك فى شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وإلى أين ؟ إلى أحد (٢) .

فند قدم أبو سفيان بعير قريش ووقفها فى دار الندوة مشى إليه البقية الباقية من أشراف قريش فقالوا له :

يا أبا سفيان ، احتبس هذه العير فانها أموال أهل مكة ، وقد طابت نفوسهم بأثمان ما فى العير ، فباعوا ما كان فيها بذهب العين وتجهزوا به أو تجهزوا بأرباحه ، وقد قيل إن الدينار فى تجارة هذه العير قد ربح مثله ديناراً .

---

(١) الدرر ص ١٤٢

(٢) جوامع السيرة ص ١٥٦، ١٧٣.

وكذلك تجهزت قريش وحلفاؤها وساروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يغزونه في أحد ، وكان قد بلغ النبي ما أجمعوا عليه فتهيأ هو وأصحابه لما أرادوه من لقاء (١)

ثم لم تكف قريش عن التأثير حتى بعد ثأرها من المسلمين في أحد ، فدامت على عداوتها حتى تم انحطامها مرتين :

مرة في غزوة الأحزاب بالمدينة : والمرة الأخيرة يوم فتح مكة وإسلام أهلها جميعا ، وعفو النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بقوله لهم :  
« اذهبوا فأنتم الطلقاء »

\* \* \*

وهذا كان في مكة وما حولها ، أما في المدينة من داخلها فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد وادع يهودها على أن لا يعينوا عليه أحدا ، وأنه إن دهمها بها عدوه نصره ، وكتب النبي بينه وبينها بذلك كتابا (٢) .  
فلما انتصر رسول الله في بدر وقتل من قتل فيها من كفار المشركين قلق اليهود فأظهروا له الحسد والبغى وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال ، ولولقينا نحن لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال . ثم نقضوا ما كان بينهم وبين النبي من عهد .  
وهكذا بغى يهود المدينة بغى قريش ، وانتقل الأذى إلى صورة أخرى في المدينة من الدس والنفاق والتحريض على الغدر ولم يرجع يهود المدينة عن خططهم حتى جنى عليهم بغيمهم ما جنى على أهل مكة من قبل ، فاستؤصلوا وطرردوا عن المدينة بل عن جزيرة العرب كلها ، وكان أمرهم كأمر أولئك ، وكانت الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

(١) أنساب الأشراف ج ١ ص ٣١١

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٨

وسبق البؤس إلى بني قينقاع فكانوا أول من نقض العهد من اليهود ،  
فذهب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم بسوقهم التي كانوا يجتمعون  
فيها ، وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب لواء أبيض ولم يكن يومئذ رايات  
ولمنا هم فرقة واحدة تحت اللواء .

ثم قال رسول الله لهم :

« يا معشر يهود ، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة  
وأسلموا ، فانكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد  
الله إليكم »

فبعثوا إلى رسول الله من يقول :

يا محمد ، لا يغرنك من لقيت ، فانما قهرت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب  
ونحن بنو الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا .

وفي أثناء ذلك الأخذ والرد حدث عدوان على امرأة مسلمة كانت عند  
صائغ منهم في دكانه فنشب قتال ، وتطور الأمر إلى محاصرتهم خمسة عشر يوماً  
فتحصنوا في حصنهم ، ثم نزلوا مقهورين على حكم النبي الذي أعفاهم من القتل  
وأجلاهم إلى الشام ، فزولوا بأذرع ، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا وبادوا .  
وقد وجد المسلمون في حصونهم سلاحاً كثيراً وآلات من آلات الصياغة ،  
وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم ودروعا لهم وقسياً وكثيراً من  
الرماح (١)

ولم يكن رسول الله قد أراد أن يمشی إليهم إلا أن يأذن الله له فأنزل سبحانه  
عليه قوله :

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (٢)

(١) انساب الأشراف ج١ ص ٣٠٨ تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٧٩

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سوق بني قينقاع فحضر عيد الأضحى فضحى هو وأهل اليسر من أصحابه يوم العاشر من ذى الحجة ثم صلى العيد ، فكان أول صلاة صلاها النبي بالناس بالمدينة في عيد .

\* \* \*

ثم كان قد حدث أنه لما قدم زيد بن حارثة إلى أهل الواطئة بالمدينة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ببشرى الانتصار في بدر وقتل كبار المشركين قال كعب بن الأشرف — وكان رجلا من طيء ، ثم أحد بني نهران ، وكانت أمه من بني النضير — فقال حين بلغه الخبر :

ويلكم ! أحق هذا ؟ أترون أن محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجال ؟ وهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة ونزل على أصدقائه هناك وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ، ثم رجع إلى المدينة وجعل يشبب — كما قيل — بأم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب ، وكانت أم الفضل من خثعم المشهورة بجمال نسائها ولكنها من الخمس الذين كانوا يتشددون قديما في الدين — ثم شبب بنساء من المسلمين حتى آذاهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من لى من ابن الأشرف ! »

ولم يكذ النبي يهيب بهذا النداء حتى خرج كثير من الرجال ، ومن يشبهون في أيامنا أولئك الأبطال الذين نسميهم بالفدائيين ، فأتوا كعبا وأوهموه أنهم هم وأهل المدينة قد صاروا في جهد وضيق منذ قدم عليهم محمد ، فصداقهم الجاهل المغرور ، لأن أخاله من الرضاع كان فيهم ، ثم ظلوا عنده أياما حتى

اطمأن إليهم فاستدرجوه إلى شعب بعيد ، ثم مالوا عليه بالسيوف . وظنرت الأوس بهذا دون الخزرج فغارت الخزرج منها .

وصاح عدو الله — حين أخذته السيوف — صيحة لم تبق حصنا من حولهم إلا استيقظ أهله وأوقدوا النار ، ولكن الرجال عادوا إلى المدينة فبلغوا النبي آخر الليل وهو قائم يصلي فأخبروه بقتل عدو الله .

وأصبحت المدينة وقد خافت يهود بوقعة المسلمين بعدو الله ، فليس بها يهودى إلا خاف على نفسه ، واشتد ما بين المسلمين وبين اليهود (١) ، وأذن رسول الله بقتل من يتعرض منهم للمسلمين .

وكان أبو رافع اليهودى يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله فوجه إليه النبي رجالا من الأنصار — وكانوا هذه المرة من الخزرج حتى يتساوا مع الأوس في السباق — وعليهم عبد الله بن عتيك ، فلما أتوا حصن أبي رافع بأرض الحجاز اقتحموا عليه حصنه وقتلوه ، ونعاه الناس في صبيحة الغد إلى أهل الحجاز ، وهكذا صنعت الخزرج بفدائيتها مثلما كانت قد فعلت الأوس بكعب بن الأشرف فظفروا بالفضل المتساوى في قتل أعداء الله (٢)

ثم هكذا جهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عملية حربية هامة هي « تنقية الحبوب » حتى لا يكون أمام المسلمين خطر يمرون عنه غافلين .

\* \* \*

وكان لا بد لقريش بعد وقعة بدر وبعد كل هذا الذى حدث من تنقية رسول الله للحبوب التى كانت ترتكز عليها — كان لا بد لها من أن تغير طريق التجارة الداهب إلى الشام المنحدر منه .

(١) ج ٢ تاريخ الطبرى ص ٤٨٧

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٤٩٣

وقد تولى أبو سفيان ذاته قيادة العيرات كلها ، لأن قريشا قد وثقت في مهارته وحيلته وإخلاصه لها ، فرأى أن يغير الطريق ، ويسلك بالتجارة القرشية طريق العراق .

وقاد أبو سفيان عيرا وتجارا ومعهم فضة كثيرة واستأجروا من يدهم على هذه الطريق من بني بكر بن وائل إذ كانت هذه القبائل على ذلك الطريق .

ولم يفت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسد عليهم هذه الطريق أيضا ، فحين علم بهذه العير الصاعدة للعراق أرسل سرية عليها زيد بن حارثة ، فلقبهم على ماء في الطريق يقال له «القردة» (١) فأصاب زيد تلك العير وما فيها فقدم بها على رسول الله ، أما الرجال فحين رأوه ولوا هارين ، وقد ظل زيد يطاردهم حتى أعجزوه عن اللحاق بهم . (٢)

وقد نسب التفكير في اتخاذ هذه الطريق لصفوان بن أمية مع أبي سفيان ، وكان لا بد لقريش من ذلك ، إذ لو حرّموا تجارة الشام لأكلوا رعوس أموالهم وافترقوا وضاع اقتصادهم .

وقد أشار عليهم زمعة بن الأسود بالدليل البكرى الذى يسلك بهم طريق نجد ويعرف وهاده وجباله ووعره وصهله ، بحيث لو أغمض عينيه وهو يسير لا هتدى فيه .

وكان ذلك في فصل الشتاء ، فلم تكن بهم حاجة إلى ماء في طريقهم ينزلون عنده كما كانت الحال في طريق الشام ، والتي كان ساوكها يكون في الصيف . وسلك الدليل بالعين حتى اعترضها زيد بن حارثة وأفلت أعيان القوم .

(١) القردة بالتحريك ماء بأرض نجد

(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص٤٩٢



وقد قسمت الغنائم من هذه السرية أخماسا ، فكان الخمس الواحد بالغاً  
عشرين ألفا ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسم الأربعة الأخماس على  
السرية ، وأتى بفرات بن حيان العجلي الذي كان دليلاً للعر أسيراً ، فقيل له  
إن أسلمت لم تقتل :

فلما دعا به رسول الله أسلم فأرسله حراً . (١)

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٩٣





الفَادَةُ الْأَعْلَامُ



## الْفَادَةُ الْأَعْلَامُ

لقد ميز التاريخ كل من حضر من المسلمين في هذه الغزوة مع النبي وكل من أدخله النبي في أهلها فسماه بدرى ، وكان جزاء كل بدرى مع حظه من الغنيمة أن غفر الله له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

كما أن الله سبحانه قد سمى الواقعة في كتابه الكريم « يوم الفرقان » إذ فرق فيها بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، فأعز الله الإسلام وأذل الكفر والشرك وعبادة الأصنام .

وحين غفر الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر كان الله سبحانه قد قدر أن هؤلاء لا يحدث منهم لثم في مستقبل أيامهم ، وبذلك قال لهم سبحانه « اعملوا ما شئتم »

ومنذ أن عرف أهل بدر قادة أعلاما أمروا على الناس في الخلافة والقضاء والفتوى والحروب ، ثم تبعهم الصحابة فكانوا لا يؤمرون إلا أصحابيا في الفتوح (١) ، فإذا أمروه ضمنوا النصر للمسلمين .

---

(١) الاصابة ج ١ ص ٥٣٢ .

وجميع البصريين من المهاجرين رضوا. الله عليهم كانوا ستة وثمانين رجلاً ، منهم ثلاثة لم يشهدوها وأوجب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أجر من شهدها وجعل له سهما من الغنائم مثل من قاتل فيها ، وهؤلاء هم : عثمان بن عفان ، تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله وكانت مريضة فتوفيت ودفنت يوم جاءت البصري بالانتصار ، فضرب رسول الله له بسهمه من الغنيمة وبأجره من المشهد ، فهو بدرى .

ثم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وقد تألما لغيتهما عن بدر حين كانا غائبين بالشام في تجارة ، فضرب لهما رسول الله بسهميهما وأجرهما فهما بدريان .

وكذلك ضرب رسول الله لخمسة من الأنصار بأجورهم وسهامهم فصاروا جميعا ثمانية ، وكان من الأنصار أسامة بن زيد . وقد فاز بالاستشهاد من المسلمين أربعة عشر رجلا : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

\* \* \*

وبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الخلافة في أربعة من أصحابه في بدر : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، أما الأولان فكانا خطيبين في المهاجرين والأنصار عند خروج النبي من المدينة إلى وادي ذفران كما كانا من أول من يشير على النبي ويؤخذ برأيه في المشورة ولا سيما أبا بكر ، وقد سبق هذان الاثنان كل الناس إلى مناصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والعمل واقتحام موارد الموت والاستشهاد ، وكذلك كان شأنهما دائما من ناحيتين : يسبقان الناس ثم هما فيما بينهما يتسابقان .

فلما وليا الخلافة كان بحسب أبي بكر أن أرجع المرتدين إلى الإسلام ، وأن ربي في حروب الردة قادة المستقبل القريب .

ثم جاء عمر فأستطاع الدولتين المحيطتين بالجزيرة : فارس والروم ، ثم استولى على أرض فارس وعلى كثير من البلاد التي كانت تحت الروم ولا سيما مصر ، وربما كان بعض قواده ورجاله من طرفي القتال في بدر : من المسلمين ومن أسلموا بعد .

وجاء عثمان فظلت الفتوح تمتد في سنى خلافته الأولى ، ثم جاء بعده حيدر على بن أبي طالب ، وعلى ما حدث مما يؤسف — في أيام هذين الخليفين ، فان قوة الإسلام الضاربة ظلت منطلقة في كل نواحي الأرض تخضعها وتستولى عليها . ومن غرائب الأقدار أن يستشهد ثلاثة من هؤلاء الخلفاء البدرين ، وهم خلفاء على الناس ، وكأن طيف الاستشهاد ظل يحوم عليهم حتى نزل بساحتهم والتي مع آجالهم .

ومثل هؤلاء في الطبقة الأولى من أهل بدر — لو صح أن نقسم أهلها إلى طبقات — أولئك الأربعة عشر الذين استشهدوا في الواقعة فهدوا للإسلام انتصارات رائعة متتابعة في عهد النبي وعهود الخلفاء والعهود التي تلتها حتى قبض أهل بدر جميعا ثم قبض أصحاب رسول الله .

ولقد كان من اليمن لكل كتيبة إسلامية محاربة تنبعث في الأرض أن يكون عليها بدرى ، فقد ثبت أنه ما من معركة حضرها واحد منهم إلا كان فيها فتح وانتصار .

ومن الحق أن يقدر للأنصار ما فعلوا في بدر ، ثم في غير بدر بعدها ، مع أنهم لم يكونوا قد بايعوا النبي في العقبة — كما ذكرنا من قبل — إلا على نصرته داخل مدينتهم .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كاد يهيب بهم إلى بدر حتى تسابقوا في تلييته ، وكان منهم في المعركة أبطال ضربوا أعظم الأبطال في التضحية والاستشهاد .

ولئن كان مقدرا أن يغلب الغيظ وحب الثأر على من حضر بدرًا من المهاجرين والمستضعفين فيميلوا إلى الشدة والعنف — كما رأينا ما حدث من بلال بن رباح مع أمية بن خلف — فإنه لم يكن في نفوس الأنصار نحو أهل مكة ما كان في في نفوس المهاجرين والمستضعفين .

إلا أن هؤلاء وهؤلاء تساوا في عداوة قريش عندما أصبح الدين وأصبحت المبادئ هي التي تشير بالعمل والمضي في أبعد حد إلى نصرتها .

ومهما بلغ العنف حدته فيما حدث فتمد تساوى فيه الأنصار والمهاجرون فكانوا جميعاً أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وبان في بدر وفي كل الغزوات والفتوح أن الأنصار قد وفوا بالمبايعة في العقبة ثم ذهبوا إلى كل ما يطلبه منهم الدين .

\* \* \*

وربما كان من الخير أن نشير هنا إلى جملة من أصحاب النبي في بدر ، من المهاجرين والأنصار غير أولئك الذين استشهدوا وغير أولئك الذين تولوا الخلافة أو ذكروا أفراداً في أثناء هذا الكتاب ليتبين أنهم جميعاً صاروا قادة أعلاماً ، لهم تهتز المواقع ، وبهم تبهج المجالس .

وليس معنى هذا الاختيار أننا نميز قوماً بدريين عن قوم آخرين إذ هم على قدم المساواة في الأجر والمنزلة ، وحسبهم أنهم جميعاً قد غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وإن كان لأحد أن يمتاز فبالعشرة السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والذين ضمنت لهم الجنة .

أما أكابر المهاجرين فمنهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقد فعل حمزة بمشركي مكة في بدر الأفاعيل ، وقد قتل في أحد هو ومصعب بن عمير ، وكانت قريش قد قصدت إلى حمزة قصداً حتى ثأر منه . (١)

---

(١) انظر احصاء المهاجرين والأنصار البدرين بجوامع السيرة لابن حزم .



وعبد الرحمن بن عوف الزهرى وقد كان جوادا كريما باع أرضا له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها . وقد حارب في أحد فأصيب في الوقعة بأكثر من عشرين جراحة بعضها في رجله فخرج منها .

والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى صاحب الدار التى كانت للدعوة السرية في الإسلام ثم خرج منها أهلها يعلنونه على رعوس الناس حين صاروا قوة تهاب . وحلفاء هؤلاء ومواليهم كثيرون ، نذكر منهم فئة قليلة من غير تفصيل لأن أسماءهم كالأعلام الخافقة المنصوبة لا تغيب عن عين ولا مشاهدة :

فمنهم زيد بن حارثة . وآل محصن : عكاشة وسانان وأبوسنان وسانان بن أبى سنان . ثم حاطب بن أبى بلتعة صاحب القصة في مراسلة قريش قبيل فتح مكة . والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله قاتل عمرو بن الحضرمي . ثم بلال ابن رباح المؤذن وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وكان من السابقين الأولين وقد مات بدمشق من بلاد الشام . ثم عامر بن فهيرة وصهيب ابن سنان الرومي ومهجع مولى عمر بن الخطاب وقد استشهد يوم بدر . وأما الأنصار فكانوا من الأوس والخزرج ، ونذكر كذلك فئة قليلة منهم وكلهم أعلام وقادة ، فمنهم : آل معاذ : سعد وأخوه عمرو والحارث بن أوس ابن معاذ . ومنهم عبيد بن أوس بن مالك بن سواد وقد سمي مقرنا لأنه أسر وحده في بدر أربعة من قريش فقرنهم كلهم في جبل وساقهم ، وكان أحدهم عقيل بن أبى طالب .

ثم سهل بن حنيف وثعلبة بن حاطب ونحوات بن جبير . ول هؤلاء جميعا حلفاء وموال كثيرون كانوا معهم في القتال .

وكل أولئك كانوا من الأوس ، أما من الخزرج فعبد الله بن رواحة صاحب الراية المشهورة مع صاحبيه في مؤته . وأبو دجانة سماك بن خرشة المشهور

بمشية العجب في الحرب والتي حدث رسول الله عنها أنها مشية مكروهة إلا في هذه المواقع .

ثم آل الجموح : الحباب بن المنذر وعمير بن الحمام وقد استشهد في الموقعة ومعاذ بن عمرو ومعوذ بن عمرو وخلاد بن عمرو ، كلهم من بني الجموح ، وأولهم هو الذي أشار على النبي في موقفه على مياه بدر .

ثم بنو الحارث عوف ومعاذ ومعوذ وقد استشهد في الموقعة وهم بنو الحارث ابن رفاعة من بني النجار وهم بنو عفراء .

وأبو طلحة الأنصاري كان ممن يضرب بشجاعته المثل ، وقد قتل يوم حنين عشرين نفساً وأخذ أسلابهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول فيه :

« صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة » (١)

ومنهم بشر بن البراء وجابر بن عبد الله بن رثاب وأبو اليسر وهو الذي عرفنا من قبل أسره للعباس بن عبد المطلب .

ثم معاذ بن جبل وأبو أيوب الأنصاري الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة .

وجميع أهل بدر ثلثمائة رجل وتسعة عشر رجلاً ، منهم من غاب عنها وضرب له بسهمه وأجره : ثمانية رجال . والباقون شهدوها بأنفسهم ، وهم ثلثمائة واحد عشر رجلاً . رضوان الله عليهم أجمعين .

\* \* \*

وحتى نحصى فضل أصحاب بدر فأننا في حاجة إلى مجلدات ضخمة ، ولكن بحسبنا أن نذكر بعض رجالهم في فضل العلم والتشديد والتمتوح ، وقد قلنا

من قبل إنيهم كانوا لا يؤمرون على الفتوح إلا الصحابة ، ويفضلون أهل بدر  
فاذا ولوهم قيادة الجند. ضمنوا لأنفسهم الانتصار . (١)

ولقد كان من العلماء البدرين الأعلام عبادة بن الصامت الأنصارى  
وعبد الله بن مسعود الهذلي ، أما الأول فكان أحد نقباء الأنصار في بدر وقد  
تولى قضاء بيت المقدس — من بعد — وكان من جلة العلماء . وأما الثاني  
فكان أحد حفاظ القرآن ، تلقى عن النبي سبعين سورة . ثم جمع عثمان بن عفان  
الناس على خط زيد بن ثابت وقراءته .

وعبد الله بن مسعود هو الذي أخذ رأس أبي جهل في بدر ثم أقام بعد  
بالكوفة واليا على بيت المال . وقد تفقه به أناس كثيرون .

ثم كان من البناة أهل التشييد عتبة بن غزوان المازني البدرى ، فقد  
ابتنى عتبة مدينة واختطها بأمر عمر بن الخطاب ، واشترك في كثير من الفتوح (٢)  
وكان عتبة من أصحاب الهجرتين : الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة  
بعد رجوعه منها .

فاذا انتقلنا إلى ذكر بعض صناديد بدر فانا نذكر منهم ثلاثة على سبيل  
المثال : الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة عامر بن الجراح .  
أما الأول فهو حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية  
وشقيقة حمزة (٣) وقد بعثه عمر بن الخطاب مددا لعمر بن العاص في فتح حصن  
بابلون بمصر ففتح الحصن واقتحمه الناس ، وسلم المقوقس البلاد ، إلا ما فتح  
منها عنوة . وقد مات الزبير في إثر وقعة الجمل في أيام على .

(١) انظر أمثال هذه الاخبار في الجزء الأول من دول الاسلام

(٢) الاصابه ج ٢ ص ٤٤٨

(٣) الاصابة ج ٤ ص ٣٣٩ .

وأما الثاني وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله فقد أطلقوا عليه « فارس الإسلام » وقد جعله أبو بكر رضي الله عنه بعد حروب الردة على عسكره فاتجه سعد بن أبي وقاص بجند العرب من الجزيرة كلها إلى مملكة كسرى ، وكانت جيوش الفرس مائة ألف أو يزيدون ، فكسرهم المسلمون غير مرة وغنموا أموالهم وأسروا منهم وسبوا .

وكان الفرس أو الذين لقوا سعدا من جنودهم مجوسا من عبدة النار فخطرت في بلادهم لأول مرة أقدام الموحدين .

ثم صار سعد بعد فتح العراق وإزالة كسرى عنها نائبا عليها حتى عزله عثمان بن عفان .

وأما الثالث وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح فهو قائد الفتوح في الشام ، فتح مدائنها بعد أربع مصافات أكبرها وقعة اليرموك بأرض حوران .

وكان المسلمون في اليرموك أكثر من عشرين ألفا ، لقي بهم أبو عبيدة أكثر من مائة ألف فارس من فرسان الروم ، فهزموهم هزيمة نكراء وقتلوا نصف الجيش . ثم كان فتح دمشق على يده . ومات أبو عبيدة بالثغور في خلافة عمر بن الخطاب .

\* \* \*

وهكذا كانت بدر مدرسة القادة الأعلام كما كانت مدرسة الإيمان والإخلاص لله ورسوله . وربما صح أن يطلق على رجالها « رجال الثورة الأولين » ثم لم تكن مدرسة أولى منها بتخريج الرجال وتربية الأبطال .

كان منها الخلفاء الراشدون ثم قواد الفتوح والمعارك ولم يكن في الظن أن يتقدم جندي هو أحد الثلاثمائة المحاربين في بدر مع النبي فيقتحم حصونا كما فعل الزبير أو يدمر جيش كسرى وجيش قيصر كما فعل سعد بن أبي وقاص وكما فعل أبو عبيدة بن الجراح .

ولم يبال أهل بدر حين خرجوا للفتوح أن يعودوا إلى المدينة ، وإنما تبعروا في الحروب ليثبتوا قدم الإسلام في كل مكان فتحوه ، فأتى أبو أيوب الأنصاري في غزاة القسطنطينية سنة خمسين بعد أن لزم الجهاد وداوم الغزو بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكأنما كان موته هناك رمزا لفتح البلد للإسلام بعد مدة من الزمان .

ومات على بن أبي طالب بالكوفة ، وسعد بن عباد بأرض حوران ، وأبو عبيدة بالثغور ، وبلال بدمشق أو بداريا ، وكثير غير هؤلاء ، إلا قليلا ممن ماتوا بالمدينة بعد رجوعهم من الفتوح .

وحسب أهل بدر أن يكونوا أكبر من نصر الإسلام ، ثم هم وحدهم من بين المسلمين جميعا حاربت الملائكة في صفوفهم ، ثم هم الذين غفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر . فرضى الله عنهم أجمعين .



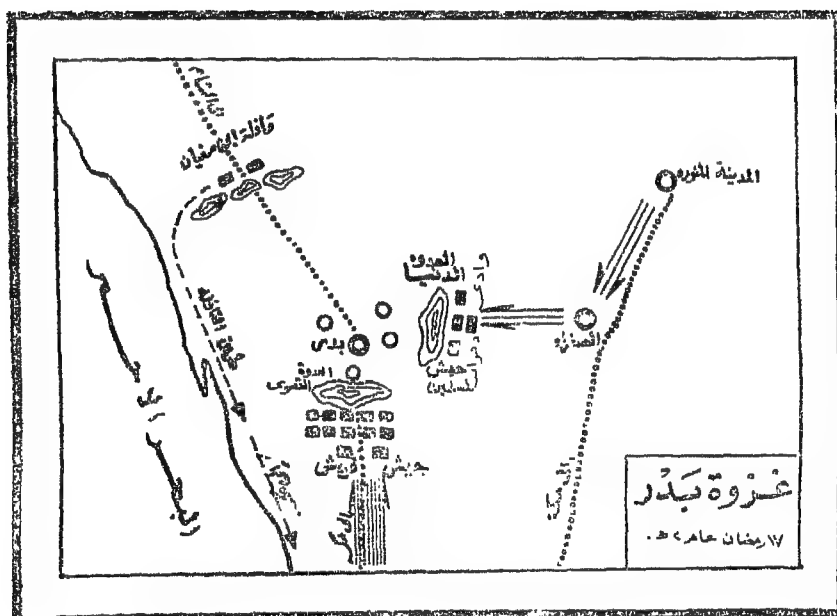














# مراجِعُ الْكِتَابِ

- (١) القرآن الكريم  
(٢) تفسير القرآن للبيضاوى  
طبعة المشهد الحسينى  
... .. بالقاهرة
- (٣) تفسير القرآن للجلالين  
طبعة المشهد الحسينى  
... .. بالقاهرة
- (٤) أسباب النزول  
على هامش الجلالين  
... .. بالقاهرة
- (٥) صحيح البخارى  
طبعة المشهد الحسينى  
... .. بالقاهرة
- (٦) أبوطالب (سيد الأهل)  
طبعة دار العلم  
... .. بيروت
- (٧) الإصابة (لابن حجر العسقلانى)  
طبعة المكتبة التجارية  
... .. بالقاهرة
- (٨) تاريخ الطبرى  
طبع دار المعارف  
... .. بالقاهرة
- (٩) تاريخ اليعقوبى  
طبعة دار صادر وبيروت  
... .. بيروت

(١٠) جعفر بن محمد

( لسيد الأهل )

طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ... .. بالقاهرة

(١١) جوامع السيرة ( لابن حزم )

طبعة دار المعارف ... .. بالقاهرة

(١٢) من حضارة الإسلام ( لسيد الأهل )

طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ... .. بالقاهرة

(١٣) الدرر ( لابن عبد البر )

تحقيق الدكتور شوقي ضيف

وطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ... .. بالقاهرة

(١٤) دول الإسلام ( للذهبي )

طبعة دار المعارف النظامية بمحدرآباد ... .. بالدكن

(١٥) زاد المعاد ( لابن قيم الجوزية )

طبعة المطبعة العصرية ... .. بالقاهرة

(١٦) السيرة النبوية ( لابن هشام )

مطبعة الحلبي ... .. بالقاهرة

(١٧) سير أعلام النبلاء ( للذهبي )

طبعة دار المعارف ... .. بالقاهرة

(١٨) الطبقات الكبرى ( لابن سعد )

طبعة دار بيروت ... .. بيروت

- (١٩) لباب الآداب (لأسامة بن منقذ)  
تحقيق الأستاذ أحمد شاكر  
وطبعة المطبعة الرحمانية ... .. القاهرة
- (٢٠) مختارات (لبعض الأساتذة)  
طبعة ... .. بالقاهرة
- (٢١) مروج الذهب (المسعودى)  
طبعة المكتبة التجارية ... .. بالقاهرة
- (٢٢) معجم البلدان (لياقوت الحموى)  
طبعة دار بيروت ... .. بيروت
- (٢٣) الناسخ والمنسوخ (الأبى جعفر النحاس)  
طبعة المكتبة العالمية بالأزهر ... .. بالقاهرة
- (٢٤) أنساب الأشراف (للبلاذرى)  
طبعة دار المعارف ... .. بالقاهرة
- (٢٥) الاستيعاب (لابن عبد البر)  
طبعة المكتبة التجارية ... .. بالقاهرة





# الفحص الرسني

- فهرس الموضوعات
- فهرس المصورات
- فهرس الرسوم



( ١ )

## فهرس الموضوعات

صفحة	
٣	الإهداء
٥	تقديم
٩	النذر الأولى
١٧	مشروعية القتال
٢٩	بعد الهجرة
٣٧	خروج السرايا
٤٩	مفترق الطريق
٥٩	القافلة الكبرى
٦٧	تقدير الموقف
٧٧	أين الحل ؟
٨٣	إلى بدر
٩٣	حومة القتال
١٠٩	مصارع الرموس
١١٣	أهل القلب
١٢٣	الغنائم والأسرى
١٤٣	سياسة الغداء
١٥١	يقظة الثأر
١٦٥	القادة الأعلام

( ٢ )

المصورات

صفحة

- ( ١ ) مصور تاريخي لأرض الحجاز ... .. ١٧٥
- ( ٢ ) مصور تاريخي لمواقع سرايا المسلمين قبل بدر ... .. ١٧٧
- ( ٣ ) مصور لوقعة بدر الكبرى ... .. ١٧٩

( ٣ )

الرسوم

صفحة	اسم الرسم
٩ قبل	النذر الاولى
٢٩ »	بعد الهجرة
٤٩ »	مفترق الطرق
٥٩ »	القافلة الكبرى
٨٣ »	الى بدر
٩٣ »	حومه القتال
١٠٩ »	مصارع الرعوس
١٢٣ »	اهل القليب
١٣٣ »	الغنائم والاسرى
١٥١ »	يقظة الثار
١٦٥ »	القادة الاعلام













Bibliotheca Alexandrina



0215797